رواية

جورج پيريك

الأشياء

حكاية من الستينيات

ترجمة: محمد فطومي



مقدمة المترجم

بقدوم هذه الرّواية الطّريفة إلى اللّغة العربيّة تكون مُدوّنتنا قد كسبت رهاناً آخر بفضل التّرجمة والمُضيِّ في تحدّي إلغاء الحدود بين اللّغات والحضارات في المكان والزّمان، فالرّواية التي بين أيدينا فضلاً عن أنّها حائزة على واحدة من أهمّ الجوائز الأدبيّة في فرنسا (جائزة «رينودو» Renaudot لسنة 1965)، فإنّها تُعَدُّ برهاناً قاطعاً على ثراء لغتنا وقدرتها الكبيرة على استيعاب الأشياء. نعم الأشياء؛ لأنّي وإن كنتُ أذكره من باب الدّعابة، فقد ظننتُ لغزارة الأشياء المذكورة في الرّواية أنّها ستتحدّث عن مدينتي ففعلت. حقّاً أنّها رواية مدهشة، يثأر فيها جورج بيريك الذي فقده الأدب بموته المُبكّر، من المادّة، من طوفان الأشياء الذي جاء على الإنسان. ربّما تحدّث بعض الفلاسفة عن موت الإنسان فالتبس المفهوم في أذهاننا، لكنّنا هنا إزاء غرق الإنسان الذي نفهمه جميعاً. شخصياً وجدتُ نفسي في الرّواية. وأجزم أنّ هذا ما سيشعر به القارئ رغم التّضليل المقصود -بغاية السّخرية - عندما أردف الكاتب العنوان بـ : «حكاية من الستّينيات»، مُستفزّاً إيّاه كي يقول بصوت يسمعه ضميره وقلبُه: «لكن مهلاً، إنّها حكايتنا الآن!». ولا أعتقد أنّ هناك أبلغ من عبارة وردت في النصّ اختزالاً لمأساة الإنسان المعاصر الذي ابتكر الاستهلاك وانتحر به. هذا الإنسان الشحّاذ الذي اغترّ وتعلّق بما لا يملك حتّى إذا امتلكه بات كأنّه درجة في سُلّم لا ينتهي لم ترتق به نحو الكرامة والسّلام بل جعلته يرى ما احتجب عنه: «ضرورة الإفراط». في هذا المجتمع المُتلهّف على الاستهلاك، بات الإفراط ضرورة. انطلاقاً من

هذا المعنى نسج بيريك روايته وأفرط هو بدوره في تعديد الأشياء إلى حدّ الانفجار اللّفظي، كأنّه يوقظ مُجتمعه السّائر في نومه بالصّراخ في وجهه، كأنّه يرميه بهذه الأشياء أو بالأحرى يرجمه بها مُمعناً في إغراقه.

تدور الأحداث في العشريّة المجنونة: السّتّينيات، أي في ذروة تعطّش النّاس للحرّية والمتعة والدّهشة والسّعادة، وهو أمر يُفَسّرُ بخروج أوروبا من حربين عالميّتين لم تخلّفا غير الدّمار للشّعوب والهوس بالسّعادة. جيروم وسيلفي زوجان يعشقان الأشياء ويفضّلان الثّراء على الحياة، سيبحثان عن الجنّة في الأرض، سيعيشان مغامرتهما، مغامرة البحث عن الجنّة، بين فرنسا وتونس، مغامرة قال عنها الكاتب، تهكّماً، إنّها تفتقر إلى اللاّشيء، وسيكتشفان أخيراً ما يشبه أنّك إذا أحسستَ بحاجة قاتلة إلى الاستزادة من كأس الحياة فهذا يعني أنّك تعيش كفايتك منها من دون أن تشعر. كأنّ اللّهفة على المزيد هي ثمالة الاكتفاء.

ستكون لجيروم وسيلفي حياة في مكان لم يخطر لهما على بال. سيغادران الحُلم، سيعرفان أنّ الأشياء التي تُسبّب السّعادة هي ذاتها التي سبّبت لهما الشّقاء. وسنعرف نحن من خلالهما أنّ الإنسان كائن مثير للشّفقة إلى درجة لا تُصدَّق.

أهدي ثمرة هذا الجهد للقارئ العربيّ متمنّياً أن يجد فيه المتعة والجمال وما يساعد على مقاومة الأشياء.

الى دينيس بوفار

إنّ المزايا التي جاءت بها الحضارةُ لا تُحصى ولا تُعدّ، مثلما هي لا تُضاهى القوّة المنتجة للثّروات لدى جميع الطّبقات، تلك التي تنبع من الاكتشافات والعلم. ولا يمكن تصوّر مدى عظمة الابتكارات الرّائعة لجنس الإنسان كي يجعل الإنسانيّة أسعد وأكثر حرّية ومثاليّة. لا شيء يشبه الكريستالين والمنابع الغزيرة للحياة الجديدة. الحياة الجديدة التي ظلّت ممنوعة عن الشّفاه العطشى للنّاس الذين ما انفكّوا يسعون وراءها بالتعلّق تارة وبالأعباء البغيضة تارة أخرى.

الجزء الأوّل

الفصل الأوّل

تقع العينُ، أوّلاً، على الموكيت الرّماديّة على طول الممرّ الضّيق والعالي. تلوح الجدران في شكل خِزَانات من الخشب الفاتح، ذات أقفال نحاسيّة متألّقة. ثلاثة نقوش، تمثّل الأولى «ثاندربورد» Thunderbird، بطل «إيبسوم»[1] Epsom، الأخرى باخرة ذات مراوح، «ڤيل-دو-مونتيرو» Ville-de-Montereau، الثّالثة قاطرة «ستيفنسون» Stephenson، تحظى بكسوة من الجلد، تشدّها ثلاث حلقات من خشب أسود تكسوه العروق، حيثُ تكفي لمسة صغيرة لجعلها تنزلق. تترك الموكيت مكانها لأرضيّة خشبيّة صفراء تقريباً، تُغطّيها جزئيًا ثلاثُ زرابيَّ ذات ألوانٍ باهتة.

سيكون طول الصّالون سبعة أمتار وعرضه ثلاثة. على اليسار ما يشبه العتبة، وكنبة كبيرة من الجلد الأسود المتهالك تحميها من الجانبين مكتبتان من خشب الكرز الشّاحب حيثُ تراكمت الكتب كما اتّفق. فوق الكنبة، خريطة ملاحة تشغل لوحة بأسرها. خلف طاولة صغيرة، تحت سجّاد صلاة حريريّ، مُعلّق في الجدار بثلاثة مسامير نحاسيّة ذات رؤوس كبيرة، يلامس الكسوة الجلديّة لكنبة أخرى عموديّة على الأولى، مُغطّاة بمُخمَلٍ أسمر فاتح، تقود إلى أثاث صغير، يعلو على الأرض بواسطة أرجلٍ، ذي لون أحمر داكن، تُزيّنُه ثلاثةُ رفوف عليها تُحف: عقيق، حجارة بيضويّة، علب تبغ، علب حلوى، منفضات من

1- «إيبسوم» Epsom (مدينة إنجليزيّة).

المرمر حجارة مصقولة مُلوّنة، أصداف من اللّؤلؤ، ساعة جيب فضّية، كأسٌ مُزخرَفة، هرم من الكريستال، مُجسّم صغير في إطار بيضويّ. بعيداً، خلف باب مُنَجّد، رفوف وُضعت بعضها فوق بعض، في الرّكن، تحتوي على علب وأسطوانات، بجانب هاتف كهربائيّ مُغلق لا تتبيّن منه سوى أربعة أزرار من فولاذ مُخَطّط، يعلوه نقش يشير إلى الموكب العظيم لاحتفال «كاروسيل»[2] Carrousel. من النّافذة المُتّشحة بستائر بيضاء وسمراء تُحاكي قماش «جوي» Jouy، تلوح بعض الأشجار، متنزّه مُصغّر، جانب من الشّارع. مكتب ذو ستائر تكدّست فيه الأوراق، والمحابر، سيحتوي على كنبة ذات ذراعين. أثينيّة ترفع الهاتف، يوميّة من الجلد، ودفتر ملاحظات. ثمّ خلف باب آخر، بعد مكتبة دوّارة، قصيرة ومُربّعة تحمل مزهريّة أسطوانيّة ذات ديكور أزرق، ملآنة بورود صفراء، تُشرف على مرآة مُستطيلة مُرصّعة في إطار من «الأكاجو»، طاولة ضيّقة، يزيّنها مقعدان إسكتلنديّان يكسوهما غلاف جلديّ.

كلّ شيء سيكون بنّياً، رمليّ اللّون، أسمر، أصفر: عالماً من الألوان العتيقة، بمقادير، مضبوطة بعناية، بل بولهٍ، تتخلّلها بُقَعٌ فاتحة، البرتقاليّ الصّارخ للوسائد، بعض الأحجام المُرقّطة الضّائعة بين المُجلّدات. في قلب النّهار، يتدفّق الضّوء على دفعات، فيجعل من الغرفة حزينة قليلاً، رغم الورود فإنّها ستكون غرفة للمساء. الشّتاءُ، إذاً، السّتائر مُغلقة، مع القليل من النّقاط التي يلامسها الضّوء - زاوية المكتبة، رفّ الأسطوانات، المكتب، المنضدة بين الكنبتين، الانعكاسُ الغائم على المرآة - ومساحات الظلّ حيثُ بريق الأشياء، الخشب المصقول، الحرير الثّقيل والمُكتنز، الكريستال المُزخرف، الجلد النّاعم، ستُمثّل ملاذاً للسّلام، أرضاً سعيدة.

سيفتَحُ البابُ الأوّل على غرفة، حيثُ الأرضيّة مكسُوّة بموكيت

2- «كاروسيل» Carrousel (مدينة ملاهٍ).

فاتح. في العُمق، سيحتلّ الحيّز سررٌ إنجليزيّة كبيرة. على اليمين، من جانِبَي النّافذة، رفّان عاليان وضيّقَان، يحتويان على كُتُبٍ أُخذت من مكانها وأعيدت إليه مئات المرّات من دون كلل، ألبومات، ألعاب ورق، الأصص، الحليّ، ومعادن مُزيّفة. على اليسار، خزانة من السّنديان، وتماثيل صغيرة لخادِمَيْن من الخشب والنّحاس يقابلان منضدة زينة وكُرسيَّيْن في شكل ضفدع، مُغلّفين بحرير رماديّ مُطرّز بعناية. بابٌ موارب يفتح على غرفة حمّام، عُلّقت فيها بينوارات كثيرة، فيها صنابير من النّحاس في شكل عنق البجع، مرآة كبيرة متحرّكة، شفرتا حلاقة في غمدينِ جلديّين أخضرين، قنانٍ، فُرَشُ أسنان ذات مقبض عاجيّ، إسفنج. جدران الغرفة مُغلّفة بقماش هنديّ؛ سيكون السّرير مُغطّى بلحاف إسكتلنديّ. طاولة سرير، يحيط بها من الجوانب الثّلاثة شريط نحاسيّ مُثقّب، عليها شمعدان من الفضّة تغلب عليه سهّارة من الحرير الرّماديّ الشّاحب جدّاً، ساعة حائط مُربّعة الزّوايا، وردة في كوب في داخلها صُحُفٌ مطويّة وبعضُ المجلّات. أبعَد، على طرف السّرير سيظهر مقعد من الجلد الطّبيعيّ. على النّوافذ، ستتدلّى السّتائر القطنيّة من قضبان نحاسيّة؛ ستكون السّتائر المزدوجة الرّماديّة من الصّوف السّميك، نصف مسحوبة. في العتمة ستكون الغرفة مُضاءة بعد. على الجدار، فوق السّرير المُعدّ للّيلة، بين مصباحَيْن إسكتلنديّين، الصّورة الفوتوغرافيّة المُذهلة، بالأسود والأبيض، في شكل شريط طويل لعصفور مُحلّق ملء السّماء، يفاجئ المُتأمّل بكماله الشّكليّ.

البابُ الثّاني، سيحجب مكتباً. ستُغطّي الكتُبُ والمجلاّتُ الجدران من الأسفل إلى الأعلى، هنا وهناك لكسر رتابة المُجلّدات والمخطوطات، بعضُ النّقوش، والرّسوم والصّور الفوتوغرافيّة – سان-جيروم دي أنطونيلو دي ميسين، أحد تفاصيل انتصار السان-

جورج، أحد معاقل «بيرانيزي»[3] Piranese بورتريه لـ «أنغر»[4]، منظر طبيعيّ بريشة «كلي»[5] Klee ، صورة فوتوغرافيّة مُصفَرَّة لـ «رنان» في مقرّ عمله في «الكوليج دو فرانس»[6] Collège de France، جناحٌ كبير لـ «استنبرغ»[7] Steinburg ، ميلانشثون Mélanchthon بريشة «كراناخ» مُثبّتة على دعامتين من الخشب راسختين في الرّفوف. على يسار النّافذة قليلاً على درجة انحراف صغيرة، طاولة لورين طويلة مُغطّاة بورق نشّاف كبير أحمر. أقداحٌ من الخشب، محابر طويلة، أصص من كلّ الأصناف تحتوي على أقلام رصاص، ومشابك ورق وغرز وحاملات ملفّات. طوبة من الزّجاج ستصلحُ منفضة سجائر. علبة دائريّة، من الجلد الأسود، مزخرفة بالأرابسك بخيوط الذّهب الرّقيقة، مليئة بالسّجائر. الضّوء آتٍ من مصباح مكاتب قديم، يصعب توجيهه، تُزيّنُه سهّارة وضّاحة خضراء في شكل قناع. من كلّ جوانب الطّاولة كنبتان من الجلد والخشب بمساند عالية، ستبدوان مقابلتين لها. على اليسار في العمق، على طول الجدار، طاولة ضيّقة طافحة بالكتب، كنبة جلديّة خضراء، تنتهي بخزانة معدنيّة رماديّة لحفظ الوثائق، ذات أدراج خشبيّة فاتحة. طاولة ثالثة أصغر ستحمل مصباحاً سويديّاً وآلة كاتبة مُغطّاة بقماش مُشمّع. أبعد في العمق، سيكون هناك سرير ضيّق، مُغلّف بمُخمَلٍ من وراء البحار، تُزيّنه

3- «بيرانيزي» Piranese (فنّان معماريّ ونقّاش ورسّام إيطاليّ ولد في البندقيّة سنة 1720 ومات فيها سنة 1878 له سلسلة لوحات معنونة بـ: «السجون المختلقة» وهي منجزة بين (1745 و1760).

4- «أنغر» Ingres (جان أوغست دومينيك أنغر رسام ونحات فرنسي، ولد عام 1780)

5- «كلي» Klee (بول كلي (18 ديسمبر 1879 – 29 يونيو 1940) Paul Klee هو رسام ألماني ولد في سويسرا، تتراوح أفكاره بين السريالية، التعبيرية والتجريدية).

6- «الكوليج دو فرانس» Collège de France (هي مؤسسة فرنسية تختص بالبحث العلمي والتعليم العالي مقرها في المنطقة الخامسة بالحي اللاتيني بباريس).

7- «ستنبرغ» Steinburg ، ميلانشثون Mélanchthon (في خطابه الافتتاحي كأستاذ للغة اليونانية في فيتنبرغ في 29 أغسطس 1518، استخدم فيليب ميلانشثون عبارة الشاعر الروماني هوراس: «تجرّأ على المعرفة»).

وسائد من كلّ الألوان. ثلاثيّ القوائم من خشب مطليّ، وسط الغرفة تقريباً، وُضعت فوقه خارطة للعالم من النّيكل والكرتون المغلِيّ، غير واضحة المعالم ويبدو قِدَمُها مُزيّفاً. خلف المكتب سُلّم خشبيّ مُشمّع نصف مُغطّى بستارة النّافذة الحمراء، بإمكانه الانتقال على درابزين نحاسيّة توازي جدران الغرفة الأربعة.

ستكون الحياة هنا سهلة وبسيطة. جميعُ إكراهات ومشاكل الحياة ستجد حلاً طبيعيّاً. ستأتي خادمة كلّ صباح. سيُساقُ النّبيذ والزّيتُ والسُكّر كلّ أسبوعين إلى البيت. سيكون هناك مطبخ فسيح ومُضاء، تعدّدت فيه خزانات مربّعة زرقاءُ للحفظ. ثلاثة صحون خزفيّة مُزخرفة بالأرابسك الأصفر ذي اللّمعان المعدنيّ، خزانات في كلّ مكان، طاولة خشبيّة بيضاءُ جميلة في الوسط، مقاعد. سيكون رائعاً الجلوس كلّ صباح هنا، بعد حمّام وفي ملابس خفيفة. على الطّاولة طبق من طين، جرارُ مُربّى وعسل وخبز مُحمّص، ليمون هنديّ مُقطّع إلى اثنين. سيكون مبكّراً. ستكون بداية يوم طويل من أيّام شهر ماي.

سيفضّان بريدهما، سيفتحان الجرائد. سيشعلان السّجائر الأولى. يخرجان. لا يكلّفهما عملهما سوى بضع ساعات في الصّباح. سيلتقيان ليتناولا سندويشاً أو بعض المشاوي حسب المزاج؛ يحتسيان قهوة في إحدى الشّرفات، ثمّ يعودان إلى بيتهما بتأنّ سيراً على الأقدام.

نادراً ما يُرتّبُ المنزل، لكنّها فوضى من النّوع الذي يضفي عليه سحراً خاصاً. قليلاً ما يعتنيان به: يعيشان فيه. التّرف المُحيط بهما من جانب يبدو لهما مُكتَسباً، مُعطى أساسيّاً، وضعاً طبيعيّاً. كان اهتمامهما منصبّاً خارجه: على الكتاب الذي يقرآنه، النصّ الذي يكتبانه، الأسطوانة التي يستمعان إليها، حوارهما المُستأنَف. سيعملان طويلاً. ثمّ سيتناولان العشاء أو يخرجان إلى العشاء؛ سيلتقيان أصدقاءهما؛ سيتنزّهان.

يبدو لهما أحياناً أنّ حياة بأسرها من السّهل أن تسيل بعذوبة خلف هذه الجدران المُغطّاة بالكتب، بين تلك الأشياء الأليفة التي سينتهي

بهما الأمر إلى التّصديق أنّها صُنعت لأجل استخدامهما الخاص فقط، بين تلك الأشياء الجميلة والبسيطة والهادئة والمتألّقة. لكنّهما لا يشعران بانجذاب كبير إليها: خلال بعض الأيّام كانا يخرجان إلى المغامرة. ما من مشروع سيستحيل عليهما. لن يعرفا الضّغينة، ولا المرارة ولا الرّغبة. لأنّ إمكانيّاتهما ورغباتهما متناغمة في كلّ نقطة، في كلّ الأوقات. كانا يعتبران هذا التوازن سعادة وسيعرفان بحرّيتهما وحكمتهما، بثقافتهما كيف يحافظان عليها، وكيف يكتشفانها في كلّ لحظة من حياتهما المُشتركة.

الفصل II

كان بودّهما لو كانا ثريّيْن. اعتقدا أنّهما قادران على أن يكونا كذلك. كانا سيعرفان كيف يلبسان ويُشاهدان ويبتسمان كأناس أغنياء فعلاً. كانا سيحظيان باللّباقة والتعقّل الضّروريّين. كانا سينسيان ثراءهما ويعرفان كيف يتفاخران به. لن يمجّدا أنفسهما. كانا سيتنفّسان الثّراء. ستكون متعة قصوى. كانا سيُحبّان المشي، التسكّع، الاختيار، التذوّق. كانا سيعشقان الحياة. كانت حياتهما ستُمثّل بالنّسبة إليهما فنّ العيش.

أشياء كهذه ليست سهلة، بل على العكس. بالنّسبة إلى زوجين شابّين، غير ثريّين، يتمنّيان لو كانا حقّاً ثريَّين، فقط، لأنّهما لم يكونا فقيرَيْن، ما من وضع غير مريح أكثر من ذلك. لا يملكان سوى ما يستحقّانه. أُحيلا -بينما كانا يحلمان بالمكان الفسيح والنّور والصّمتِ- إلى الحقيقة التي لم تكن حتّى كئيبة، بل فقط، ضامرة، وهذا أفظع ربّما، لهذا البيت الضيّق ووجباتهما اليوميّة المتكرّرة ورحلاتهما الهزيلة. ذاك ما كان يناسب وضعهما الماديّ ومكانتهما الاجتماعيّة. كانت تلك هي حقيقتهما، التي لا حقيقة غيرها. لكن حولهما وبمحاذاتهما، على طول الشّوارع، حيٌّ لم يكن في وسعهما ألاّ يتمشيا فيه، توجد عروض مُذهلة، أروقة مرحّبة بحرارة، باعة أشياء عتيقة، متاجر وورّاقون. من القصر الملكي إلى «سان جيرمان»، من الـ «شان دي مار» في النّجمة، من اللكسمبرغ إلى «مون برناس»، من جزيرة «سان لويس» إلى حي «ماري» Marais التّاريخي، من حيّ «لي تيرن» Les ternes إلى الأوبرا،

من المادلين إلى متنزّه «مونسو»، كانت باريس بأكملها مصدراً أزليّاً للغواية. كانا يتحرّقان شوقاً للاستسلام إليها، ثملَيْن، فوراً وإلى الأبد. لكنّ أفق رغباتهما كان مسدوداً بلا رحمة. أحلامهما الكبيرة المستحيلة لم تكن سوى مجرّد يوتوبيا.

كانا يعيشان في شقّة صغيرة وجذّابة، ذات سقف واطئ وتفتح على حديقة. يتذكّران جيّداً غرفة الخادمة - رواق ضيّق ومظلم، الحرارة مرتفعة والرّوائح عنيدة -عاشا ذلك بنوع من السُّكر، متجدّدَيْن كلّ يوم على تغريد العصافير. يفتحان النّوافذ ولدقائق طويلة، يتأمّلان ساحتهما بغبطة قصوى. كان البيت عتيقاً وغير متداعٍ بعدُ، لكنّه كان قديماً ومأهولاً بالسّحالي. كانت الأروقة والسّلالم ضيّقة ومُتّسخة، خانقة بفعل الرّطوبة، مُبلّلة بالبُخار الدّهني. لكن بين شجرتين كبيرتين وخمس حدائق مُصغّرة، كانت الأشكالُ غير متناسقة، على الأغلب بسبب الإهمال، لكنّها ثرّى بالعشب النّادر وأزهار الأصص والشّجيرات، والتّماثيل السّاذجة، يمكن القول، ويمتدّ أفعوانيّاً ممشى مكسُوٌّ بحجارة غير منتظمة، تعطي الانطباع بأنّ المشهد ريفيّ. كان من بين الأماكن النّادرة في باريس حيثُ يحدث بعد المطر، أيّام الخريف أن تفوح رائحة تراب، تكاد تكون نفّاذة، رائحة غابة وحمّص وأوراق متحلّلة.

لم يكونا قد تعبا من هذه الأشياء السّاحرة بل ظلّا دائماً، بعفويّة، حسّاسين إزاءها كما خلال الأيّام الأولى، لكن بات أكيداً، بعد أشهر من البهجة العارمة، أنّها لم تعد تفي بحاجتهما إلى نسيان ظروف إقامتهما. وبما أنّهما كانا مُعتادَيْن على العيش في غرف غير صحّية حيثُ لا يفعلان شيئاً سوى النّوم، وقضاء كامل اليوم بين المقاهي، كان من الضّروريّ أن يمرّ وقت طويل كي يكتشفا أنّ التّفاصيل البسيطة للحياة، من نوم، وأكلٍ وقراءة وثرثرة واغتسال، كانت جميعها تتطلّب فضاءً مخصوصاً حيثُ غيابه المشبوه، بدأ يطفو على السّطح. كانا يواسيان بعضهما بعضاً ما أمكنهما، يهنّئان بعضهما بعضاً على جمال الحيّ، بمحاذاة

شارع «موفتار» Mouffetard وحديقة النّباتات، على الهدوء في الشّارع، الصّبغة الخاصّة لسقفهما الواطئ، روعة الأشجار والسّاحة على مدى الفصول؛ لكن، كان كلّ شيء قد بدأ يتهاوى تحت أكوام الأغراض، الأثاث، الكتب، الصّحون، الوثائق، القوارير الفارغة.

حرب استنزاف بدأت، لن يخرجا منها منتصرين أبداً.

على مساحة إجماليّة تقدّر بخمسة وثلاثين متراً مربّعاً، لم يجدا الجرأة ليتثبّتا منها، كان لمنزلهما مدخل صغير جدّاً، ومطبخ ضيّق، خُصّص نصفه لدورة المياه، وغرفة متواضعة المساحة، وحجرة للقيام بكلّ شيء - مكتبة، غرفة معيشة أو عمل، غرفة أصدقاء - وزاوية لم يُحدّد دورها، في منتصف الممرّ، حيثُ تستقرّ ثلّاجة صغيرة الحجم، وسخّان كهربائيّ، خزانة للأشياء الثّمينة، طاولة يتناولان عليها وجباتهما، وصندوق غسيل يصلح لهما مقعداً أيضاً.

خلال بعض الأوقات يصبح غياب المساحة أمراً طاغياً. كانا يختنقان. كانا يحاولان توسعة الغرفتين، قهرَ الجدران، خلق أروقة جديدة، مخارج، تخيّل خزانات عصريّة، اللّحاق بمنازل الجيران، لكنّ الأمر ينتهي بهما دائماً بأن يجدا نفسيهما في إقامتهما، إقامتهما الوحيدة: خمسة وثلاثون متراً مُربّعاً.

هناك، طبعاً، حلولٌ مُجدية متاحة: جدار فاصل قد يُزال، مُحرّراً بذلك ركناً واسعاً سيّئ الاستغلال، يمكن استبدال أثاث كبير على نحو يقدّم فائدة، يمكن صنع أدراج عوضاً عنه. هكذا إذاً، كان من الممكن، بعد طلاء جديد، وعناية بقليل من الحبّ، أن يتحوّل المنزل إلى إقامة جذّابة بشكل مؤكّد، بنافذته ذات السّتارة الحمراء، ونافذته ذات السّتارة الخضراء، بطاولة السّنديان الطّويلة، المتأرجحة قليلاً، التي اشترياها من أسواق الأغراض المُستعملة، والتي تشغل مكاناً تحت خارطة إبحار مُزيّفة جميلة جدّاً، تفصل بين نصفيها، لأجل العمل، ستارة حمراء (من طراز الإمبراطوريّة الثّانية)، سيلفي على اليسار وجيروم على اليمين،

حيثُ يُميّز كليهما الورق النشّاف الأحمر ذاته، والمقلمة ذاتها؛ وهي عبارة عن قنّينة زجاجيّة مُزخرفة بخيط فضّي، تمّ تحويلها إلى مصباح، وذلك «الديكالتر»[8] الخشبيّ المُقوّى بالمعدن الذي يصلح سلّة مهملات، بكنبتين متنوّعتَيْ العناصر والكراسي القصبيّة، ومقاعد رعاة البقر. وكان من الممكن، فعلا، أن تنبعث من هذا الدّيكور النقيّ والنّظيف ذي الهندسة العبقريّة، حميميّة كبيرة، وجوّ عمل لطيف، جوّ حياة مُشتركة.

لكن مجرّد فكرة الأشغال في الأفق ترعبهما. كان لابدّ لهما من أن يقترضا، أن يقتصدا ويستثمرا مُدّخراتهما. لم يصرفا النّظر عن ذلك قط. لم يكن القلبُ مُعلّقاً بالتدرّج البطيء: لم يكونا يفكّران إلا بطريقة الكلّ أو لا شيء. ستكون المكتبة بخشب السّنديان الفاتح أو لن تكون هناك مكتبة أصلاً. لم تكن هناك مكتبة. كانت الكتب تتراكم فوق رفّين خشبيّين مُتّسخيْن، وعلى امتداد صَفّين، في أدراج لا ينبغي أن تستقبل الكتب. ولمدّة ثلاث سنوات، ظلّ مقبس كهربائيّ مُعطّل، من دون أن يتوصّلا إلى استدعاء كهربائيّ لإصلاحه، فيما تمتدّ على طول الجدران أسلاك بجدائل خشنة وأخرى للتّمديد لم تكن جذّابة. اقتضى الأمر ستّة أشهر لاستبدال حبل ستارة. والعلّة الصّغيرة في التّرتيب اليوميّ للبيت تُترجَمُ خلال أربع وعشرين ساعة بفوضى عارمة تزيدها الأشجار والحدائق القريبة وطأة وتجعلها لا تُحتَمَل.

المُؤقّت والوضع المعتاد هما اللذان يسودان بشكل صارخ. كانا في انتظار مُعجزة. كانا سيجلبان المهندسين المعماريّين والمُقاولين والبنّائين والسبّاكين ومنجّدي الأثاث والدهّانين. كانا سيذهبان في رحلة ولدى عودتهما كانا سيجدان البيت قد تحوّل بالكامل، تمّت صيانته وتوضيبه وتجديده، بيتاً نموذجياً، وقد كَبُر بشكل سحريّ، بيتاً حافلاً بالمفاجآت والتّفاصيل المحسوبة على القياس، جدراناً مُتحرّكة، وسيلة تدفئة جيّدة ومخفيّة بعناية، شبكة كهربائيّة لا مرئيّة، أثاثاً من طراز رفيع.

8- «الديكالتر» (وعاء سعته عشرة ليترات).

لكن بين هذه الأحلام الكبيرة التي كانا مُستسلمين لها بنوع من المجاملة الغريبة، وبين انعدام اتّخاذ خطوة واحدة نحو تحقيقها، ما من مشروع حقيقيّ يبدو ملائماً لاحتياجاتهما العقلانيّة ومقدرتهما الماديّة. رغبتهما الجامحة تشلّهما تماماً.

كان غياب البساطة ووضوح الرّؤية هما أصل الأشياء. اليُسر - وهو الجانب الأخطر - يخونهما بقسوة. ليس اليُسر الماديّ، الموضوعيّ، بل نوع من السّفاهة، شيء من قبيل الارتخاء. كانا يميلان إلى كونهما مُتارِيَن، بخيلَيْن، غيورَيْن تقريباً. تعلّقهما بالرفاهية، بالأفضل، يتجلّى غالباً فيما يشبه العمل التّبشيريّ السّاذج: يتحاوران طويلاً، هما وأصدقاؤهما، حول العبقريّة التي في غليون أو في منضدة، كانا على استعداد ليجعلا منها تحفاً فنّية، قطعاً تُعرض في المتاحف فقط. كانا يندهشان أمام حقيبة: تلك الحقائب المُصغّرة، المُسطّحة بشكل رائع، من جلد أسود، ذي المظهر البُرغُليّ، تلك التي تُشاهَد معروضة في واجهات محلّات الـ «مادلين»، والتي يُفتَرَضُ أنّها تختصر كلّ مباهج السّفر البرقيّ، إلى نيويورك أو لندن. قطعاً باريس لرؤية كنبة قيل لهم إنّها في حالة جيّدة. ومع معرفتهما للكلاسيكيّات، كانا يتردّدان أمام ارتداء لباس جديد، إذ كان يبدو لهما أنّه يكون أكثر أناقة لو أنّه استُعمل ثلاث مرّات على الأقلّ. لكنّ حركاتهما المُكرّسة التي يقومان بها للاندهاش أمام واجهة حائك، صانعة قبّعات أو صيّاد، لم تكن مُجدية غالبا إلّا في حدود جعلهما سخيفَيْن.

ربّما كانا متأثّرين بماضيهما (ليسا هما فقط، بل وأصدقاؤهما أيضاً، الزّملاء، كلّ الذين لهم نفس العمر، العالم المُنغَمِسَيْن فيه). لعلّهما جَشِعَيْن منذ البداية: يريدان بلوغ الغاية بسرعة. كان لابدّ من أن يصبح العالم والأشياء التي وُجدت ملكاً لهما، وكانا سيعدّدان أحقّيتهما في ذلك. إلاّ أنّهما كانا يرزحان تحت سطوة البحث: ربّما أمكنهما أن يصبحا غنيين أكثر فأكثر؛ لا يمكنهما القيام بأكثر ممّا أتيح لهما إلى حدّ الآن. كان بودّهما لو عاشا البذخ والجمال. لكنّهما يتعجّبان ويندهشان،

إنّه البرهان على أنّهما مُعدَمَيْن. التّقاليد - في مفهومها المقيت، ربّما - تنقُصُهما، الحقيقة، الاستمتاع الحقيقيّ، الظّاهرة والمكتومة، تلك التي ترافقها سعادة جسديّة، فيما كان انتشاؤهما دماغيًا. في أحيان كثيرة، لم يكونا يعشقان فيما يسميانِه بالبذخ، سوى المال المتواري خلفه. كانا مُنجَذبَيْن إلى علامات الثّراء؛ كانا يؤثِران الثّراء على الحياة.

خروجهما الأوّل من العالم الطُلاّبي، مغامراتهما الأولى في عالم محلاّت التّرف التي لن يطول الأمد قبل أن تتحوّل إلى أرضهما الموعودة، هو أكثر ما قد يدلّ على وجهة النّظر تلك. ذوقُهما المُشوّش، تردّدهما الذي يصعب إرضاؤه، نقص تجربتهما، تبجيلهما لما كانا يعتبرانها المقاييس الحقيقيّة للذّوق الرّاقي، كلّفتهما بعض أخطاء سوء التّقدير، بعض الإهانات. قد يبدو أحياناً من طريقة جيروم وأصدقائه في اللّباس، أنها لم تكن على نمط الجنتلمان الإنجليزي، بل الكاريكاتور القارّي الذي يُقدّمه مهاجر حديث من الفئة المتواضعة. وفي اليوم الذي اشترى فيه جيروم حذاءه البريطانيّ الأوّل، اعتنى به، بعد حكّه طويلاً بلمسات دائريّة، ضاغطة قليلاً، بواسطة قطعة قماش قطنيّ مطليّ بسيجار فاخر، وتركه يجفّ في الشّمس، كي يُكسِبه، بسرعة، لمعاناً مُذهلاً. إنّما للأسف، كان إلى جانب خُفَّيْن ذوَي قصبتين قويّتين ونعلَيْن مُفَطَّرَيْن، يرفض ارتداءهما، الحذاء الوحيد الذي يملكه: أجحف في استعماله، مشى به في مسالك وعرة، وأفسده في أقلّ من سبعة أشهر.

ثمّ مع السنّ الذي ساعد على مراكمة التّجارب، بدا أنّهما أصبحا على مسافة من حماسهما المُتفاقم. عرفا كيف يترقّبان ويعتادان. تشكّل ذوقهما ببطء، بخطوات واثقة، وراجحة. أمكن لرغباتهما أن تنضج بمرور الوقت؛ أصبح طمعهما أقلّ شراسة. وهما يمرّان، في نزهة في ضواحي باريس، بباعة الأغراض الريفيّة العتيقة، لم يعودا يندفعان بحماس نحو الصّحون الخزفيّة، نحو كراسي الكنائس، نحو علب الحلوى البلّوريّة، أو صوب الشّمعدانات النّحاسيّة. بالتّأكيد، مازال

هناك في النّظرة المُسطّحة للمنزل النّموذجيّ، نوع من التّرف المثالي، والحياة السّعيدة، الكثير من السّذاجة، والكثير من مجاملة الذّات: أحبّا بعنف تلك الأغراض التي وحده ذوقُ النّهار يحكم بأنّها جميلة: صور «إيبينال»[9] Epinal المُزيّفة، تلك النّقوش الإنجليزيّة، ذاك العقيق، تلك الكؤوس المُخطّطة، خردوات المُتعجرفين القدامى، الأشياء التّافهة الغريبة، التي سيجدونها في وقت معروضة في واجهات شارع «جاكوب» Jacob، وشارع «ڤيكونتي» Visconti. لا يزالان يحلمان بامتلاكها؛ كان لابدّ لهما من إخماد حاجتهما المحمومة والأكيدة إلى ذلك، أن يواكبا العصر، أن يبدُوَا عارفيْنِ حقيقيّيْن. لكنّ ضبط النّفس المُمَوَّه ذاك بات يكتسي أهمّية أقل، ولاحت لهما رائعة فكرةُ أنّ الصّورة التي شكّلاها عن الحياة بدأت تتخلّص من كلّ تعجرف وبريق زائف ومن كلّ صبيانيّة تجلّت في بعض الأحيان. أحرقا جميع ما أحبّاه: مرايا السّاحرات، لوحات التّقطيع، الأثاث الصّغير السّخيف، أجهزة القيس بالأشعّة، لوحات الفسيفساء والحصى، لوحات «الجوت»[10] Jute مُبهرجة بتوقيع الأحرف الأولى. بدا لهما أنّهما يُسيطران أكثر فأكثر على رغباتهما: باتا يعرفان ماذا يريدان؛ أصبحت لهما أفكار واضحة. يعرفان الآن لوْنَ سعادتهما وحرّيتهما.

مع ذلك، كانا مُخطِئيْن؛ كانا بصدد الضّياع. بدءاً، أحسّا بأنّهما انخرطا في طريق طويل لا يعرفان منعطفاته ولا يتخيّلان نهايته. حدث أن شعرا بالخوف. لكن غالباً كانا مُتعجّلين: أحسّا بأنّهما جاهزان؛ كانا مُستعدّين: كانا يتوقان إلى الآونة التي تبدأ معها الحياة، كانا في انتظار المال.

9- «إيبينال» Epinal (مقاطعة تاريخيّة وثقافيّة في ناحية الشّرق الكبير).

10- «الجوت» Jute (خيوط الجوت هي عبارة عن ألياف مصدرها لحاء أشجار الجوت التي تنبت في الهند وبنغلادش).

الفصل III

كان لجيروم أربع وعشرون سنة ولسيلفي اثنتان وعشرون. وكلاهما كانا اختصاصيين في علم النّفس الاجتماعيّ. هذا العمل الذي لم يكن، في الواقع، مهنة، أو وظيفة، كان يتمثّل في إجراء حوارات مع النّاس، وفق تقنيات عديدة، حول مواضيع مختلفة. كان عملاً صعباً يتطلّب تركيزاً عصبيّاً عالياً، لكنّه لا يخلو من أهمّية، إضافة إلى أنّه كان مؤجّراً بشكل جيّد، ويتيح لهما وقت فراغ محترم.

ككلّ زملائهما، أصبح جيروم وسيلفي اختصاصيين في علم النّفس الاجتماعي للضّرورة، لا عن اختيار. لا أحد يعلم إلى أين كان سيؤدّي بهما سقوطهما الحرّ في اشتهاء الأشياء بكسل. لقد اختار التّاريخ نيابة عنهما. كان بودّهما، مثل الجميع، لو أنّهما كرّسا نفسَيْهما لأمر ما، الإحساس بالحاجة الجارفة إلى أمر ما، كانا سيُسمّيان ذلك توقاً، شغفاً، طموحاً تهتزّ له الجوارح، شوقاً كان سيغمرهما. للأسف، لم يكونا يعرفان سوى أمرٍ واحد: العيش بشكل أفضل، وكان ذلك، حقّاً، أمراً مرهقاً بالنّسبة إليهما. وهما طالبان، كان يتربّص بهما نموذج الأستاذيّة الهزيلة، وظيفة في «نوجون-سور-سان»[11] Nogent-sur-seine، في «شاتو-تيري»[12] Château-Thierry أو في «إيتومب»[13] Etampes،

11- «نوجون-سور-سان» Nogent-sur-seine (مقاطعة فرنسيّة في الشّرق الكبير).

12- «شاتو-تيري» Château-Thierry (مقاطعة تقع شمال فرنسا).

13- «إيتومب» Etampes (مقاطعة فرنسيّة تقع جنوب شرق باريس وتبعد عنها خمسين كيلومتراً).

وراتب ضعيف، كان ذلك يرعبهما، حتّى أنّهما حالما التقيا -كان لجيروم واحد وعشرون سنة وسيلفي تسع عشرة- ومن دون تشاور، انقطعا عن دراسة لم يبدآها فعلاً. لم تكن الرّغبة في المعرفة تغويهما، بتواضع أكثر، ومن دون التخفّي خلف كونهما على خطأ بالتّأكيد، آجلاً أم عاجلاً، سيأتي اليوم الذي سيندمان فيه على ذلك، إنّهما يشعران الآن بحاجة إلى غرفة أكبر بقليل، ماء يجري، حمّام، أطعمة متنوّعة، أو ببساطة إلى وجبات تشبه الوجبات التي تقدّمها الجامعة، سيّارة ربّما، أسطوانات، رحلات، وملابس.

منذ سنوات عديدة، ظهرت في فرنسا دراسات حول الحافز. في تلك السّنة كانت البحوث في قمّة التطوّر. وكالات جديدة تُبعَثُ كلّ شهر، من لا شيء، أو تقريباً. كان من السّهل العثور على عمل. كان العمل غالبا يتمثّل في الذّهاب إلى الحدائق العامّة والمدارس والمساكن الشّعبيّة التي تقيمها الحكومة في الضّواحي، لطرح الأسئلة على الأمّهات إن كنّ لاحظن دعايات جديدة، وعن رأيهنّ فيها. سبر الآراء ذاك، والمُسمّى بالاختبار أو الاستقصاء السّريع، كان مؤَجّراً بمئة فرنك. كان ذلك قليلاً، لكنّه يظلّ أفضل من العناية بالأطفال، أو الحراسة اللّيليّة، أو غسيل الأواني، وكلّ المهن الزّهيدة -توزيع المنشورات، الكتابة، مسك الوقت في حصص الدّعاية، التّجارة السّريعة، الدّروس الخصوصيّة- التي كان من المتعارف أنّها مهن طلبة الجامعات. ثمّ عمر الوكالات القصير، نظامها التّقليديّ، حداثة الأساليب، النّقص الفادح في العناصر المؤهّلة، جميعها كانت أسباباً قويّة تعطي الأمل في البلوغ السّريع إلى القمّة، الصّعود السّهل على الأقلّ.

لم يكن ذلك خاطئاً تماماً. أمضيا بضعة أشهر في القيام بالاستبيان. ثمّ حصل أن منحهما أحد أصحاب الوكالات المضغوط بالوقت ثقته: خرجا إلى الرّيف، بآلة تسجيل تحت الذّراع؛ البعض ممّن رافقهما من السّابقين لهما في المجال، درّبهما على تقنيّات، كانت في الواقع أقلّ صعوبة ممّا

يُرَوِّجُ عادة، حوارات مفتوحة وأخرى مغلقة: تعلّما كيف يدفعان النّاس إلى الكلام، وأن يقيسا كلماتهما جيداً: عرفا كيف يكشفان، خلف التردّد المُعقّد، تحت الصّمت المُشوّش، تحت التهيّوات الخجولة، الطّرق التي كان عليهما اتّخاذها: كشفا سرّ هذا الـ «امم » hmm الكونيّ، ذاك الرنين السحريّ الحقيقيّ، الذي يوقّع به المُحاوِرُ كلام مُحاوَرِه، ويطمئنه، يفهمه، يشجّعه، يسأله، ويهدّده به أحياناً.

كانت النّتيجة مُشرّفة. تابعا انطلاقهما. جمعا من هنا وهناك المواضيع المُتعلّقة بعلم النّفس، بالإحصاء؛ دمجا بين الإيماءات وبين الكلمات، الأمر الذي يتقنانه أكثر من غيره: طريقة سيلفي في نزع نظّارتيْها ووضعهما، طريقة ما في تسجيل الملاحظات، في تقليب صفحات تقرير ما، طريقة ما في الكلام، طريقتها وهي تحاور رئيسها بنبرة مستفهمة بالكاد، في نثر عبارات من قبيل: «... أليس كذلك...»، «... أظنّ ربّما...»، «... على نحو ما...»، «... هو سؤال أطرحُه...»، طريقة ما في أن تذكر، في الوقت المناسب، «رايت ميلز»[14] Wright Mills (عالم اجتماع أمريكي)، «ويليام وايت»[15] William White (شاعر وموسيقار سويسري)، أو، أبعد من ذلك، «لازارسفيلد»[16] Lazarsfeld، «كنتريل»[17] Cantril، أو «هربرت هايمان»[18] Herbert Hyman، ممّن لم تقرأ لهم ثلاث صفحات.

أبْدَيَا جهوزيّة قصوى لتطوير تلك المكاسب الضّروريّة للغاية، التي اعتبراها أبجديّة المهنة، وبالكاد بعد سنة من لقائهما بالأصدقاء المُحفِّزين، أُوكلت لهما مهمّة ثقيلة «تحليل محتوى»: كانت الوظيفة الأدنى مباشرة من الإدارة العامة للدّراسة، المُخصّصة عادة لكوادر

14- «رايت ميلز» Wright Mills (عالم اجتماع أمريكي).
15- «ويليام وايت» William White (شاعر وموسيقار سويسري).
16- «لازارسفيلد» Lazarsfeld (عالم اجتماع أمريكي).
17- «كنتريل» Cantril (عالم نفس أمريكي).
18- «هربرت هايمان» Herbert Hyman (عالم اجتماع أمريكي).

قدامى في المجال، لكنّها في رتبتها الثّانية كانت الوظيفة الأعلى، أي الأغلى والأنبل في التّسلسل الهرميّ. على مدى السّنوات التي ستأتي لن ينزلا مطلقاً من منزلتهما تلك.

وخلال أربع سنوات، أو ربّما أكثر، سيستكشفان، ويحاوران، ويحلّلان. لِم تباعُ المكانس الكهربائيّة بصورة سيّئة؟ ما رأي الطّبقة المتواضعة في مسحوق الكاكاو؟ هل يحبّذ النّاس البطاطا المهروسة جاهزة، ولماذا؟ لأنّها خفيفة؟ لأنّها دسمة؟ لأنّها سهلة التّحضير؟: حركة بسيطة وَهُوبْ! هل يعتبر النّاس أنّ سيّارات الأطفال باهظة الثّمن؟ هل أنّ النّاس مازالوا على استعداد لتوفير وسائل الرّاحة لأبنائهم؟ كيف ستنتخب المرأة الفرنسيّة؟ هل يُحبَّذُ الجبن في عبوة كمعجون الأسنان؟ هل النّاس مع النّقل المُشترك أم ضدّه؟ إلى ماذا ينتبه النّاس أوّلاً وهم يستهلكون الزّبادي: إلى اللّون؟ إلى التّماسُك؟ إلى الطّعم؟ إلى النّكهة الطّبيعيّة؟ هل تقرؤون كثيراً، قليلاً، أبداً؟ هل تذهبون إلى المطاعم؟ هل تقبَلن سيّداتي، أن تُؤجِّرن غُرَفكُنّ إلى رجل أسود؟ ماذا يروج حقّاً حول تقاعد كبار السنّ؟ ما رأي الشّباب في ذلك؟ ما رأيُ المُوظّفين السّامين؟ ما رأي امرأة الثّلاثين؟ ما رأيكم في العُطلة؟ أين تُقضّون العُطَل؟ هل تُحبّون الأطباق المُجمّدة؟ كم تعتقدون أنّ قدّاحة كهذه يُساوي ثمنها؟ ماذا تشترطون في الحاشية؟ هل بوسعكم أن تصفوا لي رجلاً يحبّ المُعجّنات؟ ما رأيكنّ في آلات غسيلكم؟ هل أنتُنّ راضيات عنها؟ ألا تصنع رغوة أكثر من اللّازم؟ هل تغسل جيّداً؟ هل تُمزّق الملابس؟ هل تُفضّلن آلة غسيل تُجفّف الملابس أيضاً؟ والوقاية، هل هي كافية، أم منقوصة؟ (تحريض المُحاوَرِ على تقديم أمثلة حيّة؛ أشياء عاينها بنفسه؛ هل جُرِحَ يوماً ما؟ كيف حدث ذلك؟ وابنه، هل سيُصبِحُ عامل مناجم مثل أبيه هو الآخر أم ماذا؟)

هناك الغسيل، الملابس التي تجفّ، الكَيّ. الغاز، الكهرباء، الهاتف. الأطفال. الملابس والملابس الدّاخليّة. الخردل. الحساء المُعلّب في

أكياس، في علب. الشَّعر: كيف يتمّ غسلُه، كيف تتمّ صباغته، كيف يُحافَظُ عليه من التّساقط، كيف يُحافَظُ على بريقه. الطّلبة، الأظفار، أدوية السُّعال، آلات الكتابة، الأسمدة، الجرّارات، وسائل التّرفيه، الهدايا، الأوراق، الأبيض، السّياسة، الطّرُق السيّارة، المشروبات الكحوليّة، المياه المعدنيّة، الأجبان والمُعَلّبات، المصابيح والسّتائر، التّأمين، العناية بالحديقة.

لا شيء إنسانيّاً يُشكّل أمراً غريباً بالنّسبة إليهما.

كسبا بعض المال للمرّة الأولى. لم يكن عملهما يروق لهما: هل كان ليُعجبهما؟ إلاّ أنّه لم يكن يُضجرهما أيضاً. يُخيّلُ إليهما أنّهما يتعلّمان الكثير. إنّه يُحوّلُهما من سنة إلى أخرى.

كانت السّاعات الأولى لمغامرتهما. لم يكونا يملكان شيئاً، ولحظة اكتشفا ثراء العالم.

لفترة طويلة، كانا نكرتين. لبسا مثل طلبة، أي بشكل سيء. ارتدت سيلفي تنّورتها الوحيدة، كنزات بشعة، سراويل من المخمل، معطفاً واقياً من المطر. ولبس جيروم معطفه الكنديّ القصير والكئيب، وبدلة مُصمّمة عند الحائك، ربطة عنق مثيرة للشّفقة. انغمسا في الموضة الإنجليزيّة. اكتشفا الصّوف، القمصان الحريريّة، القمصان النّاعمة، ربطات العنق الحريريّة، المناديل الحريريّة، «التويد» Tweed، صوف الأغنام، الكشمير، وبر الغزال، الجلد، التّسلسل الهرميّ للأحذية، أخيرا، ذاك الذي يُفضي بالـ«شورش» Churchs إلى الـ«وستون» Weston، وبالـ«وستون» إلى الـ«بانتينغ» Bunting، وبالـ«بانتينغ» إلى الـ«لوب» Lobb.

حلمهما كان رحلة إلى لندن. كانا سيقسّمان وقتهما بين «ناسيونال جاليري» National Gallery، «سافيي روو»[19] Saville Row، بعض الحانات في «شورش ستريت» Church Street، الذي احتفظ منه جيروم

19- «سافيي روو» Saville Row (شارع تجاريّ في لندن).

بذكريات حميمة. إلاّ أنّه لم يكن، آنذاك، غنياً كي يرتدي ملابس فاخرة من رأسه إلى قدميه.

في باريس، بالقليل من المال الذي جمعاه من عرق جبينهما، اقتنت سيلفي بلوزة من الحرير من محلاّت «كونوال» Cornuel، قميصاً طويلاً «توين ست» Twin-set مُستورداً من «لامبس-وول» Lambs-wool، تنّورة ضيّقة، أحذية من الجلد المضفور بعناية فائقة، منديلاً حريرياً مزخرفاً بطاووس وشجيرات. أمّا جيروم، ورغم أنّه مازال، من حين إلى آخر، يرتدي أحذية رديئة ويحلق وجهه بشكل سيّء، لابساً قمصاناً قديمة من دون ياقة، وسراويل من القماش، فقد اكتشف، محافظاً على رأيه في روعة التّناقض، اللذّة الكامنة في الصّباح الطّويل: الاغتسال، الحلاقة بشكل جيّد، وضْعَ العطر، أن يرتدي، فوق جلد مبلّل نوعاً ما، قمصاناً جميلة ناصعة البياض، ربط ربطات عنق صوفيّة أو حريريّة. اقتنى منها ثلاثاً، من الـ «أولد إنجلاند» Old England، وسترة «تويد»، قمصاناً في موسم التّخفيض، وأحذية يعتقد أنّه لن يحمَرَّ خجلاً لارتدائها.

ثمّ جاء تاريخ لا يُنسى في حياتهما، عندما اكتشفا سوق الأغراض المُستعملة

الأغراض المُستعملة. قمصان «آرو» Arrow أو «فان هوسن» Van Hausen، الجميلة، بياقاتها الطّويلة ذات الأزرار، المفقودة في باريس، لكنّ الكوميديا الأمريكيّة بدأت تُروّج لها (على الأقلّ بين هذه الأوساط المحدودة التي تجد متعتها في الكوميديا الأمريكيّة)، المُكدّسة بفوضى، إلى جانب المعاطف التي اشتهرت بأنّ شيئاً لن يمزّقها على الإطلاق، تنانير، سترات، فساتين من حرير، بدلات جلديّة، أحذية «موكاسان» جلديّة مرنة. كانا يزوران السّوق كلّ أسبوعين، السّبت صباحاً، مدّة سنة أو أكثر، للنّبش في الصّناديق، والأكشاك، والأكوام، والكراتين، والمطريّات المقلوبة، وسط حشد من اليافعين ذوي اللّحى القصيرة، والجزائريّين باعة السّاعات، السياح الأمريكيين الذين بمجرد أن

يخرجوا من جناح البلّور ذي الانعكاسات الثّمانية، والخيول الخشبيّة في سوق «فرنيزون» Vernaison، حتّى يشرعوا في التسكّع قليلاً، تائهين، في سوق «مَليك» Malik، متأمّلين الحشايا القديمة وهياكل الآلات وقطع الغيار، بجانب المسامير، متعجّبين من مصير الفائض المُتعَب لمصانعهم المرموقة. وكانا يعودان بملابس ملفوفة في جرائد، وتحفٍ ومطريّات وأصص قديمة وحقائب يد وأسطوانات.

تغيّرا، لقد أصبحا شخصين مختلفين. في الحقيقة، لم تكن بسبب الحاجة إلى الاختلاف عن الذين كانوا يحاورانهم، إثارة إعجابهم من دون إبهارهم. ولا أيضا لأنّهما يلتقيان أناساً كثيرين، أو لأنّهما يخرجان دائماً، أن بدت لهم تلك الأماكن كأنّها خُصّصَت لهما. لكنّه المال -ملاحظة سخيفة- ما عزّز في داخلهما احتياجات جديدة. كانا سيُفاجآن، لو فكّرا لحظة -لكن خلال تلك السّنوات لم يكونا يُفكّران- كم تبدّلت نظرتهما عن جسدَيْهما، عن كلّ ما كان يهمّهما من قريب، عن كلّ ما لديه قيمة، عن كلّ ما سيُصبح عالمهما.

بات كلّ شيء جديداً. حساسيّتهما، ذوقهما، أماكنهما، شكلُ الأشياء التي طالما جهلاها. كانا منتبهيْن إلى طريقة لباس الآخرين؛ كانا يتأمّلان الأثاث في الواجهات، التُّحَف، ربطات العنق؛ كانا يحلمان أمام إعلانات الوكالات العقاريّة. لاح لهما أنّهما يفهمان أموراً لم تشغلْهُما من قبل: أصبح يعنيهما أن يكون هذا الحيُّ بهيجاً، أو كئيباً، هادئاً أو صاخباً، مُقفراً أو عامراً. لا شيء على الإطلاق أعدّهما إلى مثل هذه الاهتمامات الجديدة من قبل؛ اكتشفاها بإخلاص، بحماس، مندهشيْن من جهلهما الطّويل. لم يكونا يتعجّبان من التّفكير في الأمر طوال الوقت.

الدّروب التي سلكاها، آفاقهما، رغباتهما، كلّها تبدو لهما أحياناً خاوية على نحو يبعث على اليأس. لا يعرفان أمراً قد ينجو تماماً من الضّبابيّة أو الهشاشة. مع أنّها كانت حياتهما، منبع نشوتهما، كانت منفتحة بشكل لا حدّ له، أكثر من كونها مُسكِرَة. كانا يقولان أحياناً

إنّ حياتهما كانت ستصبح أكثر سحراً، ونعومة، وغرابة من الكوميديا الأمريكيّة، ومقدّمات الأفلام التي يُنجِزُها «صول باسْ»[20] Saul Bass، وستصبح صوراً جذّابة ومُشرقة، لحقول الثّلج النقيّة المُخطّة بآثار التزحلق، وبحاراً زرقاء، شمساً، تلالاً خضراء، نيراناً متألّقة في مواقد حجريّة، طرقاً سيّارة جسورة، عربات، قصوراً، وكانت جميعها تلامِس قلبيهما كوعود جميلة.

غادرا الغرفة والمطعم الجامعيّ. وجدا شقّة ذات غرفتين للإيجار مُطلّة على حديقة جميلة في السّابع من شارع «كاتريفاج» Quatrefages، قبالة المسجد، قريباً من حديقة النّباتات. أحسّا برغبة في الحصول على موكيت وطاولات وكنبات وأرائك.

تجوّلا في باريس من دون توقّف في تلك السّنوات. توقّفا أمام جميع باعة الأغراض القيمة. زارا المحال الكبرى، ساعات بأسرها، مذهولَيْن ومرعوبَيْن، لكن من دون أن يتجرّأ أحدهما على البوح بذلك، من دون مواجهة هذه الضّراوة الحقيرة التي ستصبح مصيرهما، سبب وجودهما، كلمتهما المُشتركة. كانا مندهشيْن، بل مغمورَيْن بجسامة احتياجاتهما، بالثّروات المُكدّسة على قارعة الطّريق، بالوفرة المُتاحة.

اكتشفا المطاعم الصّغيرة في شارع «جوبلان» Gobelins، و«تيرن» Ternes، و«سان سولبيس» Saint-Sulpice، الحانات المُقفرة، حيثُ يحلو الهمس في عطل نهاية الأسبوع خارج باريس، القصور، النّزهات الكبيرة في الغابة، خلال الخريف، في «رومبويي» RambouilletK، و«ڤو» Vaux، و«كومبيينيْ» Compiègne، المباهج المتاحة للنّظر على امتداد البصر، والسّمع.

هكذا، رويـداً، وهما ينغمسان في الواقع بشكل أكثر عمقاً من ماضيهما بوصفهما بورجوازيين صغيرين بلا أهمّية، ثمّ طالبين لا مباليين

20- «صول باسْ» Saul Bass (مصمّم جنريك أمريكيّ مشهور، اشتغل مع كبار المخرجين السّينمائيين).

وبلا أفكار ذات قيمة، لم يجنيا من العالم سوى نظرة ضئيلة وسطحيّة للأشياء، بدآ يفهمان ماذا يعني أن يكون المرء نزيهاً.

هذا الاعتراف، الذي لم يكن كذلك في واقع الأمر، بل نتيجة نضج اجتماعي ونفسيّ شقّ عليهما وصفه بصورة مُتّسقة، هو الذي توّج تحوّلهما.

الفصل IV

برفقة أصدقائهما، كانت الحياةُ دائما إعصاراً لا يهدأ أبداً.

كانوا مجموعة، فريقاً خفيف الظلّ. كانوا يعرفون بعضهم بعضاً بشكل جيّد؛ كانت لديهم عادات مشتركة لأنّ كلاً منهم أثّر في الآخرين، كانت لديهم أيضا ذكريات مُشتركة وذوق مُشترك. كانت لديهم لغتهم وإشاراتهم ومواضيعهم المُفضّلة. كانوا أكثر ذكاءً من أن يتشابهوا تماماً، لكن، أيضاً، ليس كفاية كي لا يقلّد أحدهم الآخر عن وعي، كانوا يقتسمون جزءاً كبيراً من الحياة. كان ذلك يزعجهم أحياناً ويُسلّيهم أحياناً أخرى.

كان أغلبهم ينتمي إلى مجال الدّعاية. بينهم من كان يواصل، أو يتحامل على نفسه كي يواصل دراسة عامّة. التَقَوا غالب الوقت في مكاتب «الإغواء» التّجاريّة أو في مكاتب مديري الوكالات. كانوا يستمعون معاً وهم يخطّون توصياتهم التّافهة ومزاحهم الكئيب عشوائيّاً فوق الورق النشّاف؛ كان حقدهم على الأثرياء والانتهازيّين وتجّار الحساء هو الأرض التي تجمعهم. لكن عموماً، كانوا يشعرون بأنّهم محكومون بالعيش خمسة أو ستّة أيّام معاً في فنادق حزينة أو في بلدات صغيرة. كانوا في كلّ وجبة يستدعون الصّداقة لتشاركهم إيّاها. كان الفطور متعجّلاً وعَمَليّاً ووجبات العشاء طويلة بشكل مُروّع إلاّ إذا انبجس من العدم بريق يضيء ملامح وجوههم المُزيّفة التي يحملها مندوبو التّجارة. كانت الأمسيات الرّيفيّة حافلة بالذّكريات والجمال بالنّسبة إليهما خصوصاً إذا

رافقها طبق مُغطّى يحمله إليهما فوق الحساب فندقيّ نذل. نسيا آلات التّسجيل وتركا النّبرة البوليسيّة المميّزة للاختصاصيين النّفسيّين. كانا يبطئان على الطّاولة. كانا يتحدّثان عن نفسيهما وعن العالم، عن كلّ شيء ولا شيء. عن ذوقَيْهما وطموحَيْهما. كانا يجوبان المدينة بحثاً عن الحانة الوحيدة المُريحة التي ينبغي أن توجَد فيها، وحتّى ساعات متأخّرة من اللّيل، كؤوس من الويسكي والجين-تونيك، وبنوع من الأريحيّة الرّوتينيّة، يستحضران حبّهما، رغباتهما، أسفارهما، الأشياء التي كانا يرفضانها، تفاؤلهما، من دون اندهاش، بل بالعكس، بكثير من العاطفة تجاه تشابه حكايتَيهما ووجهات نظرهما.

يحدث ألاّ يخلّف هذا الإعجاب الأوّلي سوى خلق مسافة بينهم، أو هاتفاً من حين إلى آخر، تتباعد مواعيده في كلّ مرّة. يحدث أيضا، بوتيرة أقل، أن يولَد من هذا اللّقاء، عن طريق الصّدفة أو عن رغبة متبادلة، ببطء أو أقلّ، صداقة ممكنة تأخذ في التطوّر رويداً. هكذا، على مرّ الزّمن، التحم أحدهم بالآخر.

كان من السّهل التّمييز بين أفراد المجموعة. كانوا يملكون المال، ليس كثيراً، لكن ما يكفي كي يُجنّبهم السّقوط في الخسارة بعد مغامرة مجنونة من تلك التي يجهلون إن كانت تتبع التيّار العامّ أم هي ضرورة ملحّة. كانت بيوتهم، شققهم، في كلّ مرّة عبارة عن غرفتين باليَتَيْن في حيّ يختارونه بعناية -القصر الملكي، الـ «كونتريكارب» La contrescarpe، شارع سان جرمان، اللكسمبرغ، مُنبارناس- دائماً متطابقة: نفس الأرائك القذرة، نفس الطّاولات الرّيفيّة، أكوام الكتب والأسطوانات نفسُها، الأكواب القديمة، القناني القديمة، المليئة بالزّهور كما اتّفق، أقلام الرّصاص، القطع النّقديّة الزّهيدة، السّجائر، الحلوى، مشابك الورق. كانوا يرتدون الملابس بنفس الطّريقة، أي بذلك الذّوق الواحد الذي يجعل من الرّجال والنّساء على حدّ سَواء يمثّلون أناقة الزّوجة والزّوج حسب صحيفة الإكسبرس، حتّى أنّهم يدينون بالكثير لمظهرهم ذاك.

كانا، من دون شكّ، يعوّلان أكثر على صحيفة الإكسبرس. لم يكونا يحبّانها قط، لكنّهما يقتنيانها، أو، غالباً، يستعيرانها من هذا أو من ذلك، يقرآنها بانتظام، ثمّ إنّهما، باعتراف منهما، كانا يحتفظان منها بأعداد قديمة. يحدث كثيراً أن يختلفا مع خطّ تحريرها (يوماً ما، في قمّة الغضب، كتبا كُتيّباً قصيراً حول «أسلوب المُلازم» ويفضّلان من بعيد تحليل صحيفة لوموند Le Monde، التي كانا وفيّين لها بشكل خاص، وكانا يحترمان مواقف صحيفة «لا ليبيراسيون» La Libération، التي يرون أنّها صحيفة جيّدة. لكنّ الإكسبرس، وحدها تتقاطع مع فنّ الحياة فيما يعتقدان؛ كانا يجدان فيها كلّ أسبوع، رغم أنّهما مخولان دائماً كي يحكما بأنّها مُشوّهة، اهتمامات حياتهما اليوميّة. أحياناً لم يكونا يتردّدان في فضح الصّحيفة، إذ في قبالة هذا الأسلوب الذي يُكرّسُ المسافات المُزيّفة، سوء التّفاهم، الضّغينة الخفيّة، الرّغبات غير النّاضجة، الحماس المُزيّف، الهمسات، الغمزات، قبالة هذا المعرض الدّعائيّ الكبير الذي هو الإكسبرس -غايتها وليس وسيلتها، شكلها العَمَليّ- قبالة هذه التّفاصيل الصّغيرة غير الباهظة والطّريفة في آن واحد، قبالة رجال الأعمال الذين يدّعون فهم المشاكل الحقيقيّة، والتّقنيّين الذين يعرفون جيّداً الأشياء التي يتكلّمون عنها والذين يوحون بذلك فعلاً، والمُفكّرين الجريئين الذين، حاملين غلايينهم في أفواههم، قدّموا للعالم شكلِ القرن العشرين، وجعلوه يواجهه، في كلمة، قبالة نزر المسؤولين، الذين يجتمعون كلّ أسبوع حول طاولة مستديرة أو في منتدى، حيثُ ابتسامتهم المطمئنّة جدّاً، تعطي الانطباع بأنّهم يمسكون في اليد اليمنى مفاتيح مغاسل الأيدي الإداريّة، كانا يفكّران من دون هوادة، مُكرّرَيْن لعبة الكلمات التي افتتحا بها كتيّباتهما، وهي أنّه ليس مؤكّداً أنّ صحيفة الإكسبرس هي صحيفة يسار، لكنّها في المقابل، من دون شكّ، صحيفة جنائزيّة. كان ذلك خاطئاً، يعلمان هذا جيّداً، إنّما كانا يستأنسان لقول ذلك.

لم يُخفِيا أنّهما والإكسبرس على طبيعة واحدة. كانا من دون شكّ في حاجة ماسّة إلى أن يمنحا، بشكل لائق، معنى لحرّيتهما وذكائهما وبهجتهما وشبابهما دائماً وفي كلّ الأماكن. تركاها تتكفّل بهما، لأنّه الأسهل، لأنّ الضّغينة التي يكنّها كلاهما إليها تبرّر ذلك. لم يكن لردّة فعلهما ما يساويها سوى إذعانهما: كانا يتصفّحان الجريدة مُعَذّبَيْنِ حقّاً، كانا يجعّدانها، ويرميان بها بعيداً عنهما. لا ينفكّان، أحياناً، يعبّران عن قُبحها. لكنّهما يقولانه، نعم، كانا يعترفان بأنّهما اصطبغا بصبغتها.

أين كانا سيجدان صدى حقيقياً لذوقهما ورغباتهما؟ أليسا صغيرَيْن في السنّ؟ ألم يكونا ثريّيْن قليلاً؟ كانت الإكسبرس تمنحهما كلّ مؤشّرات الرّفاهية: ثوب الحمّام، تبديد الخرافات الشّائعة، الشّطآن الرّائجة على الموضة، وصفات الطّبخ الغريبة، الأشياء الضّروريّة في الحياة، التّحاليل الذكيّة، أسرار الإله، الفتحات الصّغيرة الرّخيصة، مختلف أصوات الأجراس، الأفكار الجديدة، الفساتين القصيرة، الوجبات المُجمّدة، التّفاصيل الأنيقة، الفضائح المُسلّية، نصائح الدّقيقة الأخيرة.

كانا يحلمان بصوت نصف مُرتفع، بأرائك «شستر فيلد» Chesterfield. وكانت الإكسبرس تحلم معهما. كانا يقضّيان جزءاً كبيراً من العطلة في السّعي وراء المقتنيات الرّيفيّة: اشتريا، بسعر مناسب، القصدير وكراسي القصب، والأكواب التي تغري بالشّرب، سكاكين بقبضات من عاج، صحوناً من الفخّار الجيّد سرعان ما حوّلاها إلى منافض تبغ نفيسة. كلّ تلك الأشياء، إمّا أنّ الإكسبرس قد تحدّثت عنها أو هي ستفعل.

إنّما على أرض الواقع فقد ابتعدا تدريجيّاً عن الموضة التي تدعو إليها الإكسبرس. لم يكونا آنذاك قد «استقرّا» بشكل جيّد، ومع أنّهما يحظيان بالاحترام كما لو كانا فعلاً موظّفين ساميين فإنهما كانا لا يحصلان على الضّمان ولا على منحة شهر مضاعف، ولا على المنح الشخصيّة الأخرى التي تُميّز المتعاقدين. تنصح الإكسبرس، إذاً، بخطوط عريضة مُلوّنة، بمحال ليست باهظة ولطيفة (المدير هو أحد الأصدقاء، سيقدّم

لكَ كأساً وسندويشاً أثناء قيامك بالاختيار)، شركات حيثُ روح العصر تستوجب، كي يُلاحَظ المرء بشكل لائق، تحسيناً جذرياً فيما ذُكرَ: طلاءً أبيض للجدران بواسطة الجير، الموكيت «شعر الزّنجيّ»، حيثُ وحدها أرضيّة مُزخرفة بالفسيفساء العتيق يمكنها تعويضها؛ الدّعامات المكشوفة مطلوبة بصرامة، أمّا السُلّم الدّاخليّ، والموقد وناره، الأثاث الريفيّ، فيُنصَحُ بها بشدّة. هذا التحوّل الذي انتشر في باريس والذي طال المكتبات وأروقة اللّوحات، محال لوازم الخياطة، محال الأشياء الطّائشة، ومحال الأثاث، متاجر البقالة (لم تكن نادرة رؤية تاجر تفصيل صغير من الذين يكادون يموتون جوعاً يتحوّل إلى جبّان كبير، يلبس مئزراً أزرق يجلب له التّقدير بوصفه عارفاً كبيراً في ميدانه، وينشط تحت سقف زاخر بالدّعامات والقصب...)، كلّ هذه التحوّلات إذًا، المشروعة نسبياً، فتحت باب زيادات في الأسعار على غرار اقتناء فستان من الصّوف البرّي المرسوم باليد، سترات الكشمير التي حاكتها عمياء عجوز في جزر «أوركـاد»[21] Orcades، أو بدلة «مي جرسي» نصف صوفيّة، «مي پو» نصف جلديّة (لأجل عطلة نهاية الأسبوع، للصّيد، للسيّارة) والتي بدت صعبة المنال. وحتّى وهما يجوبان بنظراتهما باعة الأغراض العتيقة فإنّهما لا يُعوّلان في تأثيث بيتهما إلاّ على الشّراءات الريفيّة من الضّواحي أو أبعد من ذلك، أو على القاعات الأقلّ ارتياداً في نزل «دروو» Drouot (حيثُ كانا يزورانه بوتيرة أقلّ ممّا يرغبان فعلاً)، كانا يملآن خزانة الملابس بفضل المواظبة على سوق الأشياء المُستعملة، أو مرّتين في السّنة، عن طريق مبيعات بالمزاد تنظّمها عجائز إنجليزيّات لمصلحة كنيسة سان جورج الباريسيّة، حيثُ المعروضات الزّاخرة بنفايات -المقبولة طبعاً- الدبلوماسيّين. كانا يشعران بنوع من الانزعاج: كان عليهما اجتياز حشد كبير من النّاس لفسح المجال للعبور والنّبش في أكوام الملابس كي يعثرا أخيراً على ربطة عنق جميلة

21- «أوركاد» Orcades (حصريّ، أصليّ، نباتي، بدويّ الصّنع، منسوج باليد).

-لا يُحبّذ الإنجليز أن يتمّ التعرّف إليهم -لكن من دون شكّ ربطة عنق مجنونة جدّاً بالنّسبة إلى سكرتير في السّفارة، أو قميصاً كان جيّداً يوماً ما، أو تنّورة يجب التّقصير فيها قليلاً. لكن، بالتّأكيد، كان هذا أو لا شيء: عدم التّكافؤ الظّاهر للعيان، بين ذوقهما في الملابس (لا شيء مناسب تماماً لهما) وبين حجم الأموال التي يمتلكانها في الوقت الحاضر، كان ذلك صارخاً، لكنّها، أخيراً أشياء ثانويّة، مقارنة بموقعهما الاجتماعيّ الرّاهن: لم يكونا الوحيدَيْن اللذين يفضّلان شراء أغراضهما مستعملة على أن يشترياها في موسم التّخفيض، ثلاث مرّات في السّنة. في العالم الذي كانا ينتميان إليه، كان من الطّبيعيّ أن تفوق رغباتهما مقدرتهما بأضعاف مضاعفة. ليسا هما من سنّ هذا القانون؛ إنّه قانون حضاريّ، مُعطى حضاريّ حيثُ الدّعاية عموماً، والمحال وفنّ العرض والإدهاش على قارعة الطّريق، إلى جانب الخردوات الثقافيّة، تُمثّل العبارات الأكثر ملاءمة. كانا مُخطئين حين اعتقدا أنّهما مستهدفان في شرفهما: تلك المذلاّت الصّغيرة -السّؤال عن السّعر بثقة مهزوزة في النّفس، التردّد، الدّخول، أن تنهشهما الرّغبة، أن تبدو المسكنة على ملامحهما -تلك المذلاّت، هي التي كانت تنعش التّجارة. كانا فخورَيْن لأنّهما حصلا على شيء ما بسعر زهيد أو مقابل لا شيء، تقريباً لا شيء. كانا فخورَيْن أيضاً (لكنّنا ندفعُ ثمناً باهظاً مقابل متعة أن ندفع ثمناً باهظاً) لأنّهما دفعا الثّمن غالياً، الأغلى، دفعة واحدة، من دون نقاش، متخمّرَيْن، ما كان، ما لا ينبغي أن يكون سوى الأجمل على الإطلاق، المثاليّ. تلك المهانة وذلك الاعتزاز كان لهما نفسُ التّأثير عليهما، أن يُخلّفا لديهما الخيبة والشّراسة. ولقد فهما، فحولهما، وفي كلّ مكان، كلّ شيء يبعث على الفهم، لأنّهما يملآن رأسيهما على مدار السّاعة بالشّعارات واللاّفتات والنّيون، والواجهات المضاءة، إنّهما ينتميان إلى أسفل السُلّم، دائماً في قاعدة السُلّم، حيثُ كانا الأقلّ مكافأة.

كانوا «أناسا جُدُداً»، موظّفين سامين لم يثقبوا جميع أضراسهم، تكنوقراط في منتصف طريق النّجاح. جاؤوا كلّهم تقريباً من أوساط بورجوازيّة صغيرة، والقيم، فكّروا، لم تكن ترضيهم تماماً، لم تكن كافية: كانوا يئنون برغبة، ويأس على التّرف والرّفاهية والرّاحة المثاليّة التي يعيشها البورجوازيّون. لم يكن لهم ماضٍ يُذكَر، ولا تقاليد. لم يكونوا في انتظار إرث ما. واحد فقط من أصدقاء سيلفي وجيروم كان قادماً من عائلة ثريّة ذات نفوذ: حرفيّون وتجّار ملاءات مُطرّزة في الشّمال؛ ثروة مُحترمة ومُكتنزة؛ عمارات في «ليل»، عقارات، منازل رائعة على تخوم «بوفي» Beauvais، مصاغات، مجوهرات، أثاث يعود إلى القرن الماضي. أمّا البقيّة فقد طُبعت طفولتهم بقاعات أكل وغرف نوم على الطّراز الإنجليزي أو الرّيفي النورمندي، كما راج في سنوات الثّلاثين: الأسرّة المُغطّاة بأقمشة ورديّة، خزانات ذات ثلاثة أبواب عليها مرايا ومرصّعة بالنّقوش الذّهبيّة اللّون، طاولات مربّعة، ذات سيقان مُقوّسة، شمّاعات معاطف من خشب الأيل المُزيّف. هناك، في المساء، تحت المصباح العائليّ، قاموا بواجباتهم. أنزلوا القمامة، كانوا أطفال «حليب»، خرجوا وصفقوا الأبواب وراءهم. كانت ذكرياتهم تتشابه، كما تشابهت الدّروب التي اتّخذوها، خروجهم البطيء عن العائلة، الآفاق التي يبدو أنّهم اختاروها بأنفسهم.

كانوا أبناء زمانهم إذًا. كانوا منسجمين مع حياتهم. لم يكونوا مُغفّلين للغاية. كانوا على دراية بحدودهم. كانوا مُرتاحين، أو على الأقلّ هذا ما كانوا يتوقون إليه. كانوا أصحاب دعابة. كانوا بعيدين كلّ البعد عن الغباء.

تحليل أعمق للمجموعة التي يُشكّلونها، ستُثبتُ أنّ تناقضاً كبيراً يسود بينهم، معارضة مكتومة. أيّ خبير اجتماعيّ من النّوع الصّارم، كان سيكتشف فجوة عميقة، وإقصاءً متبادلاً وعداوة كامنة بينهم. يحدث أحياناً، بين هذا وذاك، أن تزرع حادثة استفزاز من قبيل الصّدفة أو سوء

فهم عابر قطيعة داخل المجموعة. فتنهار صداقتهم الجميلة. لقد اكتشفوا بذهول مُخادع، أنّ أحدهم، ممّن يعتقدون أنه سخيّ، كان الذلّ في حدّ ذاته، وأنّ الآخر كان الأنانيّة نفسها. كانت التّجاذبات تحدث بينهم وكانت القطيعة أمراً سهلاً. بل كان الواحد بينهم أحياناً يجد متعة في إذلال الآخرين. أو فإنّ الاستياء هو ما يسود، إضافة إلى فترات طويلة من البرود. كانوا آنذاك يتجنّبون بعضهم بعضاً إلى أن تدق ساعة الاعتذار والنّسيان والمصالحة بحرارة. إذ في نهاية الأمر، لم يكن أحدهم قادراً على الاستغناء عن البقيّة.

كانت تلك اللّعبة تشغلهم بشكل كبير، وكانوا يقضّون أوقاتاً نفيسة في ممارستها، أوقاتاً كان من السّهل استغلالها في شأن آخر. لكنّهم كانوا مُركّبين بهذه الطّريقة، أمزجة متقلّبة تكاد تميّز المجموعة. لم تكن لهم حياة حقيقيّة خارج المجموعة. لكنّهم كانوا يمتلكون من الحكمة ما يجعلهم يتجنّبون اللّقاءات الدّائمة والعمل معاً بصفة متواصلة، بل كانوا يبذلون جهوداً كي يقوموا بشؤون خاصّة لا يطّلع عليها غيرهم، مساحات سرّية يمكنهم اللّجوء إليها، حيثُ يمكنهم ممارسة النّسيان، ليس نسيان المجموعة، المافيا، الفريق، لكن، طبعاً، العمل الذي يجمع بينهم. حياتهم المشتركة هي التي جعلت الدّراسة أكثر سهولة، التنقّل إلى القرى، ليالي التّحليل وكتابة التّقارير؛ لكنّها تسلّط عليهم أحكامها. يمكن القول إنّها مأساتهم السرّية. كان ذلك ما لا يتحدّثون في شأنه أبداً.

كانت متعتهم الكبيرة هي النّسيان الجماعي، أي أن يتسلّوا. كانوا يعشقون الشّراب، في البداية، وكانوا يشربون كثيراً، أغلب الوقت، معاً. كانوا يلتقون في الـ «هاري نيويورك بار» Harry's New York Bar، في شارع «دونو» Dauno، مقاهي القصر الملكي، الـ «بالزار»، «الليپ»، وأخرى. كانوا يعشقون بيرة «مونيخ»، الجين، الكوكتيل السّاخن أو المُثلّج، كحول الغلال. كانوا يخصّصون أمسيات بأسرها لاحتساء البيرة حول طاولتين متجاورتين حسب الظّرف، وكانوا يسهبون في

الحديث عن الحياة التي يتمنّونها. عن الكتب التي سيكتبونها يوماً، عن الأعمال التي يرغبون في القيام بها، عن الأفلام التي شاهدوها أو التي سيشاهدونها، عن مستقبل الإنسانيّة، عن الأوضاع السّياسيّة، عن العطلة القادمة، والماضية، عن الخروج إلى الرّيف، عن رحلة صغيرة إلى «بروجس» Bruges، «أونفير» Anvers، أو «بالي» Bâle. ويغرقون من حين إلى آخر في أحلام جماعيّة، من دون محاولة العودة إلى الواقع، بل بالتّمادي فيها بشكل فيه تواطؤ خفيّ، إلى أن يفقدوا كلّ صلة بالواقع. هنا، من حين إلى آخر، كانت يد تمتدّ وسط المجموعة: يأتي النّادل ليرفع الأواني الفارغة ليجلب أخرى، ثمّ سرعان ما يُستأنف الحديث، وقد أصبحوا أثقل، لا شيء يحملهم غير ما شربوه، غير سُكرهم، ظمئهم وانتشائهم.

كانوا مأخوذين بحلاوة الحرّية. خُيّل إليهم أنّ العالم بأسره أُعِدَّ لأجلهم؛ كانوا يعيشون على إيقاع ظمئهم، وكانت الوفرة متعذّرة فعلاً؛ لم يكن لحماسهم حدّ. كان في وسعهم المشي والرّكض والرّقص والغناء كامل اللّيل.

في اليوم الموالي لم يكن الأزواج يرون بعضهم، إذ يظلّون في بيوتهم متّبعين حمية غذائيّة ليست من اختيارهم، مشمئزّين، مكثرين من احتساء القهوة السّوداء وأقراص الدّواء التي تفيض. لن يخرجوا قبل حلول اللّيل، فيتّجهون إلى حانة تقدّم أكلا لتناول اللّحم البقري الطّبيعي. كانوا يتّخذون القرارات الجذريّة: لن يُدخّنوا ولن يشربوا ولن يبذّروا أموالهم. كانوا يشعرون بالخواء وبأنّهم حمقى ومن جلستهم الخمريّة كانوا يحتفظون بذكريات يمتزج معها نوع من الحنين والتوتّر الغامض، شعور مُشوّش، كما لو أنّ الأمر الذي دفع بهم إلى الشّراب أجّج في داخلهم عدم فهم عميق لمحيطهم، وإثارة مُلحّة غامضة، تناقضاً صارماً لا يمكن الفكاك منه.

أو أنّهم ينظّمون عشاءً كبيراً عند هذا الصّديق أو ذاك، حفلةً بأتمّ

معنى الكلمة. لم يكونوا يملكون أغلب الوقت سوى مطابخ متواضعة وضيّقة، وأحياناً يصعب استخدامها، وأواني مُختلفة حيثُ تضيع بعض القطع النّبيلة. على الطّاولة، كانت الكؤوس المزخرفة بذوق عالٍ تُجاور كؤوس الخردة، وسكاكين مطبخ وملاعق فضّية منقوشة.

عادوا جميعاً من شارع «موفتار» Mouffetard، مُحمّلين بالأطعمة، وصناديق البطّيخ والخوخ، وبسلال مليئة بالأجبان، لحم خروف ودجاج ومحار الموسم، الأطباق المُغطّاة، وبيض السّمك، والقوارير أخيراً، صناديق بأسرها من النّبيذ، من الـ «پورتو» porto، الماء المعدنيّ والكوكا كولا. كانوا تسعة أو عشرة، يملؤون الشقّة الضيّقة التي تضيئها نافذة واحدة تفتح على السّاحة؛ كنبة مغطّاة بالمخمل الخشن كانت تشغل عمق حجرة كالقبو؛ ثلاثة أشخاص يتّخذون مجلساً عليها، أمام طاولة عليها الأطعمة والمشروبات والغلال، والآخرون كانوا يجلسون على كراسٍ لا تشبه بعضها وعلى مقاعد خشبيّة. كانوا يأكلون ويشربون ساعات بأسرها. الاكتناز والوفرة التي ميّزت العشاء كانا حقّاً غريبين: في الواقع ومن زاوية مطبخيّة، كانوا يأكلون بطريقة سيّئة: دجاجٌ مطبوخ في الفرن لا يرافقه أي نوع من المرق؛ أمّا الخضر فكانت دائماً عبارة عن بطاطا مطبوخة في الماء أو مقليّة وكانت في آخر الشّهر تمثّل الطّبق الرّئيس، معجّنات أو أرزّ يرافقه الزّيتون وسمك الأنشوجا. لم يكونوا يقومون بأيّ محاولة للبحث؛ كان التّحضير الأعقد على الإطلاق هو البطّيخ بالپورتو، أو الموز المحترق أو الخيار المُغمّس في الكريمة. كان لابدّ من مرور سنوات عديدة قبل أن يكتشفوا تقنيات، أو لنقل فنّاً، قائماً بذاته في مجال الطّبخ، وأنّ كلّ ما أحبّوه وأكلوه لم يكن سوى موادّ خام لا تحضير فيها ولا حتّى ذوق.

بدا لهما مرّة أخرى غموض وضعهما: الصّورة التي طالما ارتسمت في أذهانهما عن الوليمة تتطابق تماماً مع الوجبات التي عرفاها فترة طويلة؛ تلك التي يقدّمونها في المطاعم الجامعيّة، إذ لكثرة ما تناولا

الشّرائح الرّقيقة القاسية، أصبح تناول اللحم الطريّ بمنزلة عقيدة بالنّسبة إليهما. لم تكن اللّحوم المطهوّة في المرق تستهويهما، فقد احتفظا بذكريات واضحة عن قطع الشّحم العائمة مع أقراص الجزر، بمحاذاة ملعقة معجون هلاميّ. بصفة عامّة، كانا يعشقان كلّ ما يتنافى مع الطّبخ المُجهّز بأبّهة. كانا يميلان إلى الوفرة والتنوّع الصّارخ؛ كانا يبغضان التّحضير البطيء الذي يُحوّل موادّ كريهة إلى أطباق راقية والذي سيعني الانغماس في عالم المقالي والطّناجر وآلات التّقطيع والسّكاكين والأفران. لكن مجرّد النّظر إلى اللّحم، كان يكاد أحيانا يفقدهما وعيهما، لأنّ كلّ شيء كان قابلاً للاستهلاك، فوراً ومن دون عناء: كانا يحبّان الپاتي والأكلة المقدونيّة المُزيّنة بالإكليل والمايونيز، لفائف الجمبون والبيض المُجمّد: كانا يستسلمان إليها باستمرار ثمّ سرعان ما يندمان حالما تشبع عيناهما، وقد غرزا بالكاد الشّوكة في الشّيء الجامد المحوط بشرائح الطّماطم وسيقان البقدونس: لأنّهما انتبها إلى أنّهما إزاء بيضة قاسية في نهاية الأمر.

كان هناك السّينما بشكل خاصّ. وهو المجال الذي تدرّبت فيه حساسيّتهما وتعلّما كلّ شيء تقريباً. لم يكونا يدينان لغيره بشيء. كانا بفضل سنّهما وتكوينهما ينتميان إلى الجيل الأوّل الذي يعتبر السّينما أكثر من فنّ، حقيقة؛ عرفا السّينما دائماً لا كجانب ضعيف من الحياة بل كأعمال عظيمة حقّاً، كميثولوجيا. ويُخيّل إليهما أحياناً أنّهما كبُرا معه، وأنّهما يفهمانه كما لم ينجح أحد قبلهما في فهمه.

كانا مُدمنيْن على السّينما. كان شغفهما الأوّل؛ كانا يشاهدان الأفلام كلّ مساء تقريباً. كانا يحبّان الصّور من دون أن يكون لذلك صلة بجودتها. كانت تقودهما وتدهشهما. كانا يحبّان غزو الفضاء، السّفر في الزّمن، الحركة، كانا يحبّان الأعاصير التي تضرب شوارع نيويورك، السّبات الاستوائي، وعنف الصّالون في أفلام الوسترن. لم يكونا طائفيّين للغاية كتلك العقول المتسرّعة التي كانت قادرة على

إطلاق الأحكام بعد مشاهدة شريط واحد لفرانك إنشتاين، بونوال، أو أنطونيوني، أو -على أشياء كثيرة أن تجتمع كي يتشكّل العالم- كارني، فيدور، ألدريش أو هيتشكوك، ولم يكونا، أيضاً، من النّوع الذي تبهره الكهرباء، كتلك المخلوقات الصّبيانيّة التي فقدت ملكة النّقد فتجدهم يصفّقون للعبقريّة التي جعلت من سماء زرقاء في لون الأزرق السّماوي أو الأحمر الخفيف لفستان «سِيدْ شاريس» تميل إلى الأحمر القاتم لكنبة «روبير تايلور». لم يكن الذّوق يعوزهما. كانا مُحصّنيْن ضدّ السّينما التي يُقال إنّها جادّة، والتي تجعلهما يجدان الأعمال التي لم ينجح هذا الوصف في التّقليل من شأنها، جيّدة جدّاً. (لكنّهما كانا يقولان إنّهما كانا على حقّ، «ماريونباد» Marienbad، اللّعنة!)، كانا يكنّان استلطافاً خاصاً، بل مبالغاً فيه تجاه أفلام الوسترن، الرّعب، الكوميديا الأمريكيّة، ولتلك المغامرات المُذهلة المُضخّمة بالنّسق الغنائيّ، الصّور الجميلة، الجمال الخاطف، والعصيّ على التّفسير، التي كان عليها، مثلاً -يذكران ذلك جيّداً- «لولا» Lola، «تقاطُع المصائر» La croisée de destin، «المسحورون» Les ensorcelés، «ذهب مع الرّيح» Ecrit sur du vent.

نادراً ما كانا يذهبان إلى الحفلات، والمسرح بشكل أقلّ بعد. لكنّ الأصدقاء كانوا يلتقون من دون موعد في قاعات السّينما، في «پاسي» Passy، «نابوليون» Napoléon، أو في قاعات السّينما المتواضعة في الأحياء، «كورسال» في «جوبلان»، «تكساس» في مونبارناس، الـ«بيكيني»، الـ«مكسيكو» في ساحة «كليشي»، «ألكازار» في «بيل فيل»، وأخرى، ناحية الـ«باستيي» أو «لا كانزيام»، تلك القاعات المجرّدة من الرفاهية، السّيئة التّجهيز، التي لا يبدو أنّها تستقطب روّاداً خلاف العاطلين عن العمل، الجزائريّين، العزّاب المتقدّمين في العمر، مدمني السّينما، الذين إضافة إلى ذلك جاؤوا يبحثون عن ذكريات يحملونها منذ مراهقتهم، لمشاهدة أفلام راج أنّها جيّدة وظلّوا يحملون في أذهانهم قائمة لعناوينها، وشقّ عليهم منذ سنوات متابعتها.

لقد حافظا على ذكريات لذيذة عن الأمسيات النّادرة التي اكتشفا خلالها وعن طريق الصّدفة، فيلم: «القرصان الأحمر»، أو «العالم ملكٌ له وحده»، أو «قراصنة اللّيل»، أو «أختي إلين»، أو «الأصابع الخمسة آلاف للدكتور ت». للأسف، أحياناً، كانا يشعران بخيبة فظيعة. هذه الأفلام التي طال انتظارهما لها، وهما يتصفّحان باضطراب محموم صحيفة السّينما، تلك الأفلام التي أكّدوا لهما أنّها رائعة، ويحدث أن يُعلَن عنها. يجدان نفسيهما في قاعة مليئة ليس فيها مكان شاغر واحد، في أوّل أمسيات العرض. تُضاء الشّاشة وتعتريهما قشعريرة حماس. لكنّ الألوان قديمة والصّور تقفز، والنّساء هرمن على نحو لا يُصدّق؛ يخرجان حزينيْن. لم يكن الفيلم الذي طالما حلما بمشاهدته. لم يكن الفيلم الذي حمله كلاهما في داخله سنين طويلة، الفيلم الكامل الذي لم يعرفا كيف يحافظان عليه في داخلهما. ذاك الفيلم الذي تمنّيا لو أنجزاه كما حلما به. أو بشكل سرّي وعميق، الفيلم الذي تمنّيا لو أنّهما عاشاه.

الفصل V

هكذا كانا يعيشان، كسائر أصدقائهما في شقّتهما اللّطيفة المزدحمة بالأشياء، بنزهاتهم وأفلامهم وولائمهم الكبيرة الأخويّة، ومشاريعهم المُهمّة. لم يكونا تعيسَيْن، كانت هناك أوقات سعيدة مُسترقة، خاطفة تضيء أيّامهما. كان الأصدقاء، خلال بعض الأمسيات، يتردّدون في النّهوض عن الطّاولة بعد الطّعام؛ كانوا آنذاك قد أنهوا قارورة نبيذ، وأشعلوا سجائر وهم يتناولون البندق. خلال بعض اللّيالي لم يكن الزّوجان يفلحان في النّوم، نصف جالِسَيْن، مُستندَيْن إلى وسائد، منفضة بينهما، كانا يتحدّثان حتّى الصّباح. في بعض الأيّام كانا يتنزّهان متحاوِرَيْن لساعات طويلة. كانا يرمقان بعضهما مُبتسميْن من خلال زجاج الواجهات. كان يبدو لهما أنّ كلّ شيء مثاليّ؛ يمشيان بحرّية، مُترنّحَيْن، كما لو أنّ الوقت لا يمكنه أن يطولهما. يكفي أن يكونا هناك، في الشّارع، يوماً بارداً، تكون فيه الرّيح قويّة، دافئين في ملابسهما، مع طلوع النّهار، يتّجهان غير متعجّلَيْن، لكن بخطوات حثيثة، نحو مكان حميم، مؤنس، حيثُ الحركات العاديّة -إشعال سيجارة، شراء الكستناء السّاخنة، المشي وسط الزّحام في خروج محطّة- تبدو سعادة لا تُضاهى.

أو أحياناً، في بعض اللّيالي الصيفيّة، كانا يتمشّيان على امتداد الأحياء المجهولة تقريباً. قمر كامل الاستدارة يشعّ على الأشياء من فوق بضوء خافت وعذب. الشّوارع مقفرة وطويلة، عريضة، صامتة، تُجاري فقط وقع خطواتهما المتناسقة. كانت سيّارات تاكسي نادرة تمرّ بين الحين

والآخر، من دون ضجيج تقريباً. عندها يشعران أنّهما أسياد العالم. كانت تغمرهما سعادة غريبة، لا تشبه شيئاً مألوفاً، كما لو أنّهما صندوق أسرار خياليّة، ويحسّان بقوّة لا تُفسَّر.

كانا يركضان يداً في اليد، أو يلعبان لعبة الحجلة، أو القفز على ساق واحدة على طول الرّصيف منشدين بصوت عالٍ لحن «كوزي فان توتي»[22] Cosi fan tutte، أو لحن القدّاس.

أو أنّهما يدفعان باب مطعم صغير، وبغبطة شعائريّة، يستسلمان لدفء المكان، رنين الشّوكات، قرع الكؤوس، الضّجيج المخمليّ للأصوات، وعود الغطاء الأغطية البيضاء. يختاران نبيذهما بنوع من تأنيب الضّمير، يطويان المناديل، وفي جوّ حارّ وهما يدخّنان سيجارة سرعان ما يُطفئانها عندما يؤتى بالمُقبّلات سيبدو لهما أنّ حياتهما هي عبارة عن لحظات سعادة لا تُحصى، وأنّهما سيكونان دائماً سعداء لأنّهما يستحقّان ذلك، لأنّهما يعرفان كيف يتصرّفان، لأنّ السّعادة كانت نابعة من داخلهما. كانا جالسين، أحدهما قبالة الآخر، سيأكلان بعد جوع طويل، وكل تلك الأشياء -الغطاء الأبيض من القماش الخشن، البقعة الزّرقاء لعلبة «جيتان»، صحون الخزف، الأغطية الثّقيلة-، الأكواب الفاخرة، السلّة المليئة خبزاً جديداً- تؤلّف الإطار العام لسعادة طائشة تقريباً، على حدود الخدر: الانطباع الذي يناقض السّرعة تماماً ويشبهها تماماً في آن واحد، إحساس رائع بالاستقرار، إحساس رائع بالامتلاء. انطلاقاً من تلك الطّاولة كانا يشعران بانسجام كلّي: كانا في اتّحاد مع الكون، يسبحان فيه، مرتاحَيْن، هادئَيْن، لم يكن هناك ما يخشيانه.

لعلّهما يعرفان أكثر من الآخرين، كيف يفكّان شيفرة، أو على الأقلّ يثيران أمر الإشارات المؤنسة كما تتراءى لهما. كانت أسماعهما وأصابعهما متأهّبة على الدّوام ولا ترجو سوى اللّحظة المناسبة كي تتيقّظ. لكن خلال تلك الأوقات التي يتركان نفسيهما فيها منقادَيْن

22- «كوزي فان توتي» Cosi fan tutte (أوبيرا تراجيديا رومانسيّة مشهورة لموزارت).

لإحساس الهدوء والأبديّة، الذي لا شيء قد يُعكّره، حيثُ كلّ شيء متّزن بعناية ولذيذ بشكل مستمرّ، ستثير قوّة السّعادة كلّ ما فيها من حلاوة عابرة وهشّة. لا يتطلّب الأمر الكثير كي ينهار كلّ شيء: أقلّ نوتة خارج اللّحن، حركة فظّة أكثر من اللّزوم، عندها ستتفتّت السّعادة؛ سيعودان إلى ما اعتادا أن يكوناه أبداً، عقداً ما، شيئاً ما اقتنياه، شيئاً هشّاً مثيراً للشّفقة، لحظة راحة، فسحة التقاط أنفاس تعيدهما بعنف إلى وضع خطير، وضع مرتبك في وجودهما وفي تاريخهما.

المملّ في البحث هو أنّه لا يدوم طويلاً. في قصّة جيروم وسيلفي كان مكتوباً منذ اليوم الذي تعيّن عليهما الاختيار: إمّا أن يستسلما للبطالة والعمل كموظّفين بسيطين، وإما أن يدخلا الحياة بقوّة ويعملا في وكالة، كامل الوقت بصفتهما ممثّلين ساميّيْن. أو أن يغيّرا المهنة، والبحث عن عمل في مكان آخر، لكنّه لم يكن سوى تحويل للمشكلة لا أكثر. ذلك أنّه لو تقرّر من جهة أناس لم يصلوا إلى الثّلاثين بعد، أن يعملوا حسب رغبتهم بحرّية، حتّى لو أثار حضورهم الإعجاب وانفتاح مخيّلتهم، وتنوّع تجربتهم، أو ما يُسمّى بتعدّد اختصاصاتهم، فإنّه سيكون دائماً مطلوباً -عكس المتوقّع- من كلّ شريك تجاوز الثّلاثين حديثاً بأن يتّسم بالتّوازن والرّصانة، وأن يكون منضبطاً في حضوره، وأن يبدي الكثير من الجدّية، والثّبات. لم يكن أصحاب الوكالات يرفضون تشغيل أناس تجاوزوا الخامسة والثّلاثين من العمر فحسب، بل كانوا يتردّدون إزاء منح الثّقة لشخص بلغ من العمر ثلاثين عاماً ولم يُنتَدب من قبل أحد من قبل. أمّا الاستمرار في استخدامهم ظرفيّاً فقد كان مستحيلاً: لم يكن عدم الاستقرار بالأمر الجادّ؛ في الثّلاثين إمّا أن يكون المرء قد وصل، أو فهو لا شيء على الإطلاق. ولا أحد وصل قبل أن يجد مكانه، حفر جحره الصّغير، حصل على بعض المفاتيح، وأصبح له مكتب ورفّ خاصّ.

كان جيروم وسيلفي، غالباً، يفكّران في هذا المأزق. كان أمامهما بعض السّنوات، لكنّ الحياة التي يعيشانها، السّلام النّسبي، الذي يعرفانه

لن يتواصل أبداً. رويداً سيمضي كلّ شيء نحو التفتّت؛ لن يظلّ لهما شيء. لم يكونا يشعران بأنّهما مسحوقان بسبب أعباء العمل، كانت حياتهما مؤمّنة تقريباً، قيمة بعد قيمة، عاماً جيّداً يليه عام سيّئ، مقبول، من دون أن يرهقهما العمل في حدّ ذاته. لكنّ ذلك لن يدوم.

لا يمكن أن يظلّا أبداً مجرّد متحرّيَيْنِ ميدانِيّيْن في مجال الدّعاية. على اختصاصي علم النّفس الاجتماعي صعود السّلالم الواحد تلو الآخر، بسرعة، حالما ينهي تكوينه: ليصبح مساعد مدير أو مدير وكالة، أو أن يجد في شركة كبيرة خطّة رئيس مصلحة من تلك التي يُحسَدُ عليها صاحبها، يكون مُكلّفاً بانتداب الموظّفين، بتوجيههم، بتحرير تقارير اجتماعيّة، أو حول السّياسة التجاريّة. إنّها أوضاع جميلة: أرضيّات المكاتب مكسُوّة بالموكيت؛ هاتفان، آلة تسجيل، ثلاثة صالونات وأحياناً لوحة لـ «برنارد بوفي» Bernard Buffet [23] معلّقة على أحد الجدران.

المؤسف، فكّر جيروم وسيلفي على حدّ سواء، أنّ الذي لا يعمل لا يأكل، لكنّ الذي يعمل لا يعيش. يعتقدان أنّهما راكما بعض التّجربة، خلال بضعة أسابيع. أصبحت سيلفي مكلّفة بالتّوثيق لدى مكتب دراسات، أمّا جيروم فقد اضطلع بمهمّة تحليل الحوارات. كانت ظروف العمل أكثر من رائعة لكليهما: يحضران متى أرادا، يقرآن الصّحيفة في المكتب، ينزلان لاحتساء قهوة أو شرب الجعة، بل لقد كانا يكنّان استلطافاً خاصاً لعملهما، أيّده وعد باهت بإبرام عقد متين معهما، وتطوّرا سريعاً في سلّم التّرقيات. لكنّهما لم يستمرّا طويلاً. كان استيقاظهما، صباحاً، فظيعا للغاية؛ عودتهما كلّ مساء في المترو المزدحم كان أمراً كئيباً جدّاً ومشحوناً بالضّغينة؛ صرفا النّظر، كانا كالأوغاد، القذرين، فوق أرائكهما، لا يحلمان طوال اليوم إلا بعطلة نهاية أسبوع طويلة، فارغة، وكسولة والنّوم حتّى ساعة متأخّرة من الصّباح.

23- «برنارد بوفي» Bernard Buffet (رسّام فرنسيّ ولد في باريس سنة 1928، ينتمي إلى المدرسة التّعبيريّة).

أحسّا بأنّهما سجينَيْن، واقِعَيْن في الشّرك كجرذان. لم يعودا قادِرَيْن على التوقّف. كانا يظنّان أنّ أشياء كثيرة يمكن أن تحدث معهما، أنّ انتظام التّوقيت، تعاقب الأيّام، الأسابيع، ستمثّل عائقاً لن يتأخّرا في وصفه بالجهنّمي. مع ذلك كانا يعيشان بداية مسيرة موفّقة: مستقبل جميل يفتح لهما ذراعيه؛ كانا في ذلك الوقت شابّين لامعيْن من النّوع الذي يعتبر الرّؤساء أنفسهم محظوظين لأنّهم احتكروهما وسيسارعون إلى تكوينهما وتشكيلهما حسب تصوّرهم، سيدعونهما للعشاء، سيداعبون بطونهم، بحركة ودّ، وسيُفتح لهما بحركة واحدة باب الثّراء.

كانا غبِيّيْن -كم مرّة عليهما أن يكرّرا على أنفسهما أنّهما أحمقان، وأنّهما على خطأ، وأنّهما على الأقلّ ليسا مُحِقَّيْن أكثر من غيرهما، المتهافتين والمتسلّقين- إلاّ أنّهما يحبّان أيّامهما الطّويلة الخالية من العمل، استيقاظهما الكسول، الصّباح في السّرير، مُحمّلَيْن بجبل من الرّوايات البوليسيّة والخيال العلميّ، نزهاتهما في اللّيل، على طول الأرصفة وضفاف المرافئ، وإحساس الإثارة الذي يغمرهما حريّة في بعض الأيّام، الإحساس بأنّهما كانا في رحلة عطلة كلّما عادا من استقصاء قاما به في منطقة ريفيّة.

يعلمان، طبعاً، أنّ كلّ ذلك كان زائفاً وأنّ حرّيتهما كانت مجرّد خدعة. كانت حياتهما موسومة بالبحث المحموم عن عمل، كلّما كان ذلك متوفّراً، إحدى الوكالات التي كانت تُشغّلهما ابتلعتها وكالة كبيرة، بعطل نهاية الأسبوع اللّطيفة حيثُ السّجائر محسوبة، بالوقت الذي كانا يهدرانه في تلبية دعوات العشاء.

كانا في قلب المعمعة الأكثر غباء وسخفاً على الإطلاق. لكنّهما يعرفان أنّها سخيفة وغبيّة، مع ذلك كانا غارقين فيها؛ لم يعد التّناقض بين العمل والحريّة يهمّ كثيراً، منذ فترة لا بأس بها، لقد أذعنا، للمفاهيم الصّارمة للحياة، الضّرورة على وجه الخصوص؛ رغم ذلك كان ذلك مصدر قلق كبير.

النّاس الذين يختارون المال أوّلاً، الذين يؤجّلون مشاريعهم الحقيقيّة إلى وقت لاحق يكونون فيه أثرياء، ليسوا مخطئين بالضّرورة. الذين يراهنون على الحياة، والذين يسمّونها الحرية العظيمة، السّبيل الوحيد للسّعادة، الإشباع المطلق للرّغبات والغرائز، الاستخدام الفوري للثروات اللّامحدودة للعالم -جيروم وسيلفي لهما تصوّر في هذا المضمار-، هؤلاء سيكونون تعساء دائماً. صحيح أنّ هناك أناساً لا يعانون هذه المعضلة، أو أنّها بالكاد مطروحة، أن يكونا فقيرين جدّاً، وليس لهما متطلّبات عدا الأكل بشكل أفضل، السّكن اللائق قليلاً، العمل بشكل أقلّ، أو أن يكونا ثريين جدّاً منذ البداية وأن يكون كلّ شيء في متناول أيديهما، ما يجعلهما يعيان معنى الوفرة والاختلاف. لكن في أيّامنا هذه وتحت هذا المناخ بالذّات، عدد الذين ليسوا أغنياء وليسوا فقراء يزداد يوماً بعد يوم: إنّهم يحلمون بالثّراء، ويمكنهم ذلك: هنا تكمن مأساتهم.

شاب نظريّ يتمّ تعليمه، ثمّ يقوم بالتزامه العسكريّ بشرف، ليجد نفسه في الخامسة والعشرين عارياً كاليوم الأوّل، رغم امتلاكه الافتراضي لبعض الأشياء، القليل من العلم وبعض المال الذي لم يخطر له أن يحصل عليه. أي أنّه يعرف يقيناً أنّه، في يوم ما، سيملك بيتاً، ومنزلاً في الرّيف، سيّارة وأثاثاً بجودة عالية. لكن يحدث أن تُنتَظَرَ كلّ تلك الوعود بكثير من الاحتقان: إنّها تنتمي إلى منظومة -لو فكّرنا جيّداً- منها الزّواج وولادة الأطفال ونضج القيم الأخلاقيّة، والسّلوك الاجتماعي والسّلوك الإنسانيّ. في كلمة واحدة، على الشابّ أن يستقرّ وهذا لن يحدث قبل خمس عشرة سنة.

تصوّر مماثل ليس بالأمر المُريح. لا أحد يندمج في الحياة من دون ثرثرة. هكذا حدّث الشاب نفسه: هل سأقضي سائر أيّامي خلف هذه المكاتب الزجاجيّة بدل التنزّه في الشّوارع المُزهرة، هل سأباغت نفسي مفعماً بالأمل اللّيلة ما قبل بدء موسم التّخفيض، هل سأخمّن، هل سأحتار، هل سأعضّ على مكابحي، أنا الذي يحلم بالشّعر، بقطار

اللّيل، بالرّمل الحار؟ وظنّاً منه أنّه يواسي نفسه، سيسقط دائماً في فخّ الثّراءات المُرتَجَلة. إنّه مأخوذ، مأخوذ جدّاً: لم يبق له سوى أن يتسلّح بالصّبر. للأسف، حين يكون في ذروة عذابه، فإنّ الشاب الذي هو في مقتبل العمر، لا يعود شاباً، وفي قمّة ألمه قد يبدو له أنّه خلّف حياته وراءه، وأنّها لم تكن سوى جهد كبير مبذول، وليس هدفاً، وحتّى لو كان عاقلاً جدّاً وحذراً جدّاً –لأنّ ارتقاءه كان سيكفل له تجربة محترمة – كي يتمسّك بمبادئ مماثلة، فإنّ ذلك لن يبقى صحيحاً في الأربعين، وأنّ بيته الأصلي وبيته الثاني، وتعليم أبنائه ستتكفّل جميعا بملء الوقت المتبقي الذي تركه له كدحُه...

نفادُ الصّبر، يقول جيوم وسيلفي، هو فضيلة القرن العشرين. في العشرين، عندما شاهدا أو اعتقدا أنّهما شاهدا ماذا يمكن أن تكون الحياة، والمسرّات التي تحتويها، والمغامرات اللاّنهائيّة التي تعد بها، الخ.، عرفا أنّهما لن يملكا من القوّة ما يجعلهما قادرين على الانتظار. يمكنهما البلوغ، مثل آخرين؛ لكنّهما لا يريدان غير أن يكونا قد بلغا. في هذا تحديداً يتّصفان بما عُرف بأنّه المثقّف.

كلّ شيء يسير عكس إرادتهما، الحياة نفسها تفعل الشّيء ذاته معهما. لكن في كلّ مكان حولهما، يتّحد الانتشاء مع خصائص الكون. يريدان البقاء في حيويّة دائمة، بريئين على الدّوام، لكنّ السّنوات تمرّ من دون أن تمنحهما شيئاً يُذكَر، فيما لم يكن الآخرون يرون في الثّراء سوى نهاية الطّريق، أمّا هما، فلم يكن لديهما المال بتاتاً.

كانا يقولان بعضهما لبعض إنّهما ليسا الأكثر بؤساً على سطح الأرض. ربّما كانا مُحقّيْن غير أنّ الحياة العصريّة كانت تفاقم مأساتهما فيما كانت تمحو عذاب الآخرين: كان الآخرون في الطّريق السويّ. هما، لم يكونا شيئاً يُذكَر: كادحين صغيرين، قنّاصيْن، معتوهَيْن. إنّما كان صحيحاً من ناحية ما أنّ الوقت كان في خدمتهما، وأنّهما وجدا في العالم المُتاحِ صوراً مثيرة. كان ذلك عزاءً اتّفقا على أنّه تافه.

الفصل VI

استقرّ بهما الحالُ في وضع مؤقّت. كانا يعملان كما كان آخرون يُزاولون دراستهم؛ اختارا توقيت العمل. وتجوّلا في المدينة كما الطلبة هم وحدهم يجيدون فعل ذلك.

لكنّ الخطر كان مُحدقاً بهما من كلّ جانب. تمنّيا لو أنّ قصّتهما كانت قصّة فرح؛ كانت غالباً قصّة سعادة مُهدَّدَة. كانا لا يزالان في ريعان الشّباب، لكنّ الوقت يمرّ بسرعة. طالب قديم، إنّه أمر مُحزن؛ فاشل، وسيئ وهذا أفظع. كانا يشعران بالخوف.

كانا يملكان الكثير من وقت الفراغ؛ لكنّ الوقت يعمل ضدّهما. كان لابدّ أن يدفعا فواتير الغاز الكهرباء والهاتف. كان لابدّ من الأكل كلّ يوم. كان لابدّ من لباس كلّ يوم، لابدّ أيضاً من طلاء الجدران وتغيير الأغطية، الغسيل، الكيّ، اقتناء أحذية جديدة، ركوب القطار، شراء الأثاث.

كانا أحيانا يغرقان في الجانب المادي. لم ينفكّا يفكّران في الأمر. كانت حياتهما المشتركة نفسها متأثّرة بهذا الجانب. كلّ شيء كان يوحي بأنّهما لو كانا ثريَّيْن، لو أنّ لهما أسبقيّة على متطلّبات الحياة لما كان هناك ما يقوى على تدمير سعادتهما؛ ما من شرط بدا قادراً على الحدّ من حبّهما. ذوقهما، أوهامهما المُبهرجة، ابتكاراتهما، شهيّتهما، كانت جميعها متّحدة في ظلّ حرّية واحدة، حرّية مُشتركة. لكنّها أوقات فريدة؛ كان عليهما المقاومة: عند أوّل إشارة إفلاس، لم يكن غريباً أن يلجأ أحدهما إلى الآخر. كانا يناضلان من أجل لا شيء، من أجل مئة فرنك

سرعان ما سيتمّ تبذيرها، من أجل أوان متّسخة لن تُغسَل أبداً. لذلك، لم يكونا يتبادلان الكلام لساعات طويلة، بل لأيّام بأسرها. كانا يأكلان، في مواجهة بعضهما، كلّ على حدة، من دون تبادل نظرات. ثمّ يجلسان كلّ في ركن من الكنبة، مُدبِرَيْن بنصف استداره. سيرادم احدهما النّجاحات من دون انقطاع.

انتَصَب بينهما المال. كان بمنزلة جدار، نوعاً من الحاجز الذي راحا يصطدمان به في كلّ لحظة. كان شيئاً أفظع من الخصاصة: القلق، الضّيق، القلّة. كانا يعيشان العالم المُغلق في الحياة المُغلقة، من دون مستقبل، من دون مخرج ممكن عدا المعجزات المستحيلة، أحلام غبيّة لا تستقيم بحال من الأحوال.

لقد اختنقا. وطغى عليهما الإحساس بالغرق.

طبعاً في وسعهما الحديث في مواضيع أخرى، حول كتاب صدر حديثاً، حول مُخرج معيّن، الحرب، أو الآخرين، لكن بدا لهما أنّ الحديث الحقيقيّ الوحيد الذي يهمّهما هو الحديث عن المال، البذخ، السّعادة. علت الوتيرة إذًا، وصار التوتّر أكبر. كانا وهما يتحدّثان يشعران بكلّ ما هو مستحيل في داخلهما، ما لن يطالاه أبداً، ما هو بائس. كانا غاضبيْن؛ لأنّهما معنيان للغاية، أحسّ كل منهما أنّه مذنب أمام الآخر. كانا يبنيان مشاريع للذّهاب في عطلة، السّفر، البيت، ثمّ يدمّرانها بغضب: بدا لهما أنّ حياتهما الحقيقيّة ستتّضح يوماً ما، كشيء غير متّسق، وغير موجود. لذلك لزما الصّمت، وكان صمتهما مشحوناً بالحقد؛ إنّهما يؤاخذان الحياة، كانا أضعف من أن يوجّها اللّوم بعضهما لبعض؛ فكّرا في دراستهما المُهمَلَة، في عطلتهما التي بلا قيمة، في حياتهما الرّديئة، في بيتهما المُزدحم، في أحلامهما المستحيلة. وهما ينظران بعضهما إلى بعض كانا يكتشفان أنّهما قبيحَان، أنّهما يلبسان بشكل سيئ جدّاً، غير ميسورَيْن، عابِسَيْن. بمحاذاتهما، كانت السيّارات تنزلق على الطّريق ببطء. وفي السّاحات كانت لافتات النيون تومض بالتّناوب. كان النّاس

على جادات المقاهي يشبهون سمكاً سعيداً. لقد كرها العالم. وها هما يعودان إلى البيت منهَكَيْن. ويخلدان إلى النّوم من دون تبادل كلمة واحدة.

كان يكفي أن ينهار شيء ما، يوماً ما، كان يكفي أن تقفل وكالة أبوابها، أو أن يجدوهما مُسنَّيْن أكثر من اللاّزم، أو غير منضبطين في العمل، أو أن يمرض أحدهما، كي يتداعى كلّ شيء. لم يكن أمامهما شيء ولا وراءهما. كانا دائماً يفكّران في هذا الموضوع المؤرِّق. كانا دائماً يعودان إليه رغماً عنهما. كان يلوح لهما كيف أنّهما سيلبثان من دون عمل أشهراً طويلة راضيَيْن بوظائف زهيدة، مُقترضَيْن الأموال ومُستجدِيَيْن أحياناً. كانت، أحياناً، تغمرهما لحظات من اليأس المُطبَق: كانا يحلمان بمكاتب، بحيّز خاص، بأيّام منتظمة، بوضع مُحدّد. لكنّ هذه الصّور المقلوبة كانت تزيد من يأسهما أكثر: لم يكن بإمكانهما تخيّل نفسيهما مواطنَيْن متحضّرَيْن؛ قرّرا أنّهما يكرهان التدرج الهرمي، وأنّ الحلول المعجزة من عدمها تتأتّى من التّاريخ وحده. تابعا حياتهما المُهتَزّة: إنّها تتناسب مع منحدرهما الطّبيعي. لم تكن حياتهما في هذا العالم غير المتناسق الحياة الأسوأ. كانا يعيشان يومهما، وينفقان من دون حرج؛ كانا ينفقان في ستّة أيّام ما جمعاه في ثلاثة أيّام؛ كانا أحياناً يقترضان المال، ويأكلان البطاطا المقليّة ويُدخّنان السّيجارة الأخيرة معاً، ويبحثان ساعتين عن تذكرة المترو، ويحملان قمصاناً رديئة ويسمعان أسطوانات قديمة، ويسافران مع مجهولين في سيّاراتهم، ويظلّان يستعملان غطاءً واحداً خمسة أو ستّة أسابيع من دون تغييره. مع ذلك لم يكونا بعيدَيْن تماماً عن فكرة أنّ الحياة لها سحرها في كلّ الظّروف.

الفصل VII

عندما كانا يتحدّثان عن حياتهما وعاداتهما ومُستقبلهما بنوع من السّعار، كانا، آنذاك، منساقَيْن إلى خلاعة العالم الأفضل، كانا يقولان بعضهما لبعض بحزن مُسطّح أنّ أفكارهما مُشوّشة. كانا يرمقان العالم بنظرة ضبابيّة، والصّفاء الذي يطمحان إليه كان يرافقه غالباً تقلّب كبير، تذبذب، عدم انسجام غامض والعديد من الاعتبارات، تسبّبت في الحطّ من شأن الإرادة الأكثر قوّة.

خُيِّلَ إليهما أنّه السّبيل الأمثل، أو لعلّ غياب السّبيل هو ما يهيمن عليهما، ليسا هما فحسب، بل كلّ الذين في مثل سنّهما. أجيال سبقت جيلهما، اعترفوا أنّهم، بلا شكّ، توصّلوا إلى تأصيل وعي ينبع منهم ومن العالم المحيط بهم في آن. تمنّيا لو كان لديهما عشرون سنة زمن الحرب في إسبانيا، أو خلال المقاومة: كان الكلام أكثر أريحيّة؛ بدا لهما، إذاً، أنّ المشاكل المطروحة، المشاكل التي يعتقدان أنّهما عرضة لها، كانت صريحة تماماً، حتّى حين كان التّعامل معها أكثر تعقيداً من أيّ وقت مضى؛ لم يكونا يواجهان سوى المسائل المُفخّخة.

كان حنين نفاق: اندلعت الحرب في الجزائر معهما، تواصلت أمام أعينهما. لم تؤثّر فيهما إلا قليلاً؛ كانا يقومان بشيء ما أحياناً، لكنّهما كانا عموماً غير مُضطرّيْن إلى فعل ذلك. طالما اعتبرا أنّ حياتهما ومُستقبلهما ومفاهيمهما ستختلّ. كان هذا صحيحاً نسبيّاً فيما مضى: كانا سنوات الجامعة يتصرّفان بتلقائيّة أكبر، بل أحياناً بحماس كبير،

فيحضران الاجتماعات ويشاركان في التظاهرات التي وسمت بداية الحرب، نداء المُحافظين، وخصوصاً، انتشار أفكار «ديغول». وفوراً نشأت علاقة بين التحرّك، رغم أنّه كان محدوداً، وبين الأمر الذي تمّ لأجله. ولا يمكن بحال مؤاخذتهما على ارتكاب الأخطاء في تلك الفترة: استمرّت الحرب، وتركّزت أفكار «ديغول»، وانقطع جيروم وسيلفي عن الدّراسة. كانت أوساط الدّعاية، الميثولوجيّة في أغلبها، من جهة اليسار، مدعومة قليلاً من قبل مستقلّين تكنوقراط، كانت ثقافة الكفاءة، الحداثة، التّعقيد، المضاربات الاستشرافيّة، المنحى الديماغوجي لعلم الاجتماع، والمواقف الرّائجة، التي تجعل تسعة أعشار النّاس أغبياء يغنّون أناشيد الحمد بصوت واحد، شاكرين أيّ شخص أو أيّ شيء، في أوساط الدّعاية، كان إذًا، من المنطقيّ رفض أيّ سياسة منذ الأسبوع الأوّل، وألاّ يلتفت المرء إلى التّاريخ قبل مرور قرن من الزّمان. كانت فلسفة «ديغول» في الحرب، الجواب المناسب على جميع الأسئلة، وأكثر دقّة ممّا دعت إليه، وكان خطرها في مكان آخر غير الذي توقّعنا أن نجدها فيه.

استمرّت الحرب، رغم أنّها بدت فترة عابرة، حدثاً تافهاً. أخطآ التّقدير، بالتّأكيد. لكن، أخيراً، لم يكونا مسؤولين إلاّ في حدود أنّهما كانا معنيّين بها يوماً ما، أو لأنّهما خضعا بحكم العادة إلى دواع أخلاقيّة عامّة. كان في وسعهما أن يقيسا، مع كلّ تلك اللاّمبالاة، حجم الغرور، أو حتّى ضعف الشخصيّة في شغفهما بالحياة. لكنّ السّؤال لم يكن يكمن هناك: لقد رأوا، على نحو لا يخلو من دهشة، أحد الأصدقاء وهو يلقي بنفسه، بشكل خجول، جسداً فحسب، في مساعدة «الإفيلين»[24] F.L.N. شقّ عليهما، فعلاً، فهم السّبب الذي يجعلهما لا يأخذان المسألة مأخذ الجدّ، لم يجدا، حتّى، تفسيراً رومانسياً للأمر قد يسلّيهما على الأقلّ، ولا تفسيراً من زاوية السّياسة التي تغيب عنهما أطوارها تقريباً. بالنّسبة إليهما، لقد

24- «الإفيلين» F.L.N (جبهة التحرير الوطنيّة في الجزائر)

فسّرا الأمر بطريقة سهلة: جيروم وثلاثة من أصدقائه، مساندين بعضهم لبعض، نجحوا في استعادة مؤهّلاتهم.

مع أنّها حرب الجزائر، وهي وحدها منذ سنتين ما كان يحميهما من أنفسهما. كان بالإمكان، على أيّ حال، أن يشيخا بشكل سيئ، بسرعة. لكن لا بقرار منهما، لا بإرادتهما، ولا بأيّ مبرّر متعلّق بحسّ الفكاهة لديهما، كان عليهما الهرب من مُستقبل طالما مشّطاه بكلّ الألوان القاتمة. من أحداث الانقلاب العسكري في الجزائر العاصمة إلى الذين سقطوا في «شارون»[25] Charonne، كانت إشارة نهاية الحرب ولقد أنستهما، مؤقّتاً، أو هي وضعت بين قوسيْن، باقتدار استثنائي، مشاغلهما الاعتياديّة. والتكهّنات الأكثر تشاؤماً، والخوف من عدم إيجاد المخرج أبداً، أن ينتهِيَ بهما الأمر في التّشويش والضّالّة بدت مخيفة بشكل أقلّ ممّا يحدث تحت أعينهما وما يهدّدهما يوميّاً.

كانت فترة حزينة وعنيفة. كانت ربّات البيوت يخفين كيلوغرامات من السُكّر، قوارير الزّيت، علب التونة، القهوة، الحليب المُركّز. وكانت فرق من الحرس يرتدون خوذات ومعاطف مُشمّعة وجزماً عسكريّة حاملين في أيديهم الحبال، يذرعون شارع سيباستوپولSébastopol .

ولأنّ في خلفيّة سيّاراتهم هناك غالباً أعداد من صحف يروق لكثير من الرّؤوس الحسّاسة اعتبارها صحفاً مُحبِطَة، وتخريبيّة أو ليبراليّة على الأقل -لوموند Le monde، ليبيراسيون Libération، فرانس أوبسرفاتور France Observateur- يحدث لجيروم وسيلفي ولأصدقائهما أن يُبْدوا مخاوف ورؤى قلقة: يتعقّبونهم، لأنّهم لاحظوا أعداد الصّحف من سيّاراتهم، يراقبونهم، ينصبون لهم كميناً: سيحاصرهم خمسة جنود ثملين ويردونهم قتلى في شارع مُبلّل في حيّ سيّئ السّمعة...

هذا العذاب اليوميّ الذي اجتاح حياتهما، وحال في أحيان كثيرة إلى الهوس، والذي بدا أنّه طبع المزاج العامّ للنّاس، نشأت عنه

25- «شارون» Charonne (أحد أحياء باريس ويقع في الدّائرة من المدينة 20).

أحداث وأفكار مخصوصة. كانت ترافقهما في كلّ الأوقات صور دم، وانفجارات، وعنف، ورعب. كان يُخيَّل إليهما أحياناً أنّهما مُستعدّان لكلّ شيء، لكن في الغد تكون الحياة هشّة والمُستقبل مُظلماً. كانا يحلمان بالمنفى، بالرّيف، برحلات طويلة. كانا يتمنّيان لو عاشا في إنجلترا، حيثُ البوليس يحترم الكائن البشريّ. وخلال الشّتاء، يوماً بعد يوم والأحوال تسير نحو وقف إطلاق النّار، كانا يحلمان بالرّبيع القادم، العُطل القادمة، بالسّنة القادمة، متى -كما تقول الصّحف- ستهدأ العواطف بين الأشقّاء، متى سيكون ممكناً التنزّه من جديد أثناء اللّيل، بقلب مطمئن وجسم سليم ومُعافى.

اضطرّهما ضغط الأحداث المتسارعة إلى اتّخاذ موقف ممّا يجري. صحيح أنّ انخراطهما في الكفاح كان جلدِيًا[26]، لكنّهما لم يشعرا في أيّ وقت أنّهما معنيّان بشكل مباشر؛ كان وعيهما السّياسي، لو وُجدَ في شكله المنظّم والنّابع عن فكرٍ وقناعة عميقَيْن، لا كحِمَم من الأفكار السيّئة التّوجيه، فكّرا أنّه بعيد كلّ البعد عن القضيّة الجزائريّة، من النّاحية المثاليّة وعلى حساب الواقع، من ناحية النّقاشات العامّة التي لا حظّ لها عادة. يعيان ذلك جيّدا، مع إحساس بالنّدم يراودهما لأنّهما لم يتّبعا نسقاً جيّداً في متابعة القضيّة. مع كلّ ذلك انخرطا في نقابة مناهضة للفاشيّة تأسّست للتوّ في الحيّ. كان يحدث أن يستيقظا عند الخامسة صباحاً للذّهاب بصُحبة ثلاثة أصدقاء أو أربعة لإلصاق اللاّفتات التي تدعو النّاس إلى الانتباه، مندّدة بالضالعين والشّركاء، وتصم العمليّات الجبانة بالعار، مُكرّمة الضّحايا الأبرياء. ألقوا بالعرائض في المنازل وفي الشّوارع، كانوا يذهبون ثلاث أو أربع مرّات وكانوا يحرسون المباني المُهدّدة.

كانا يشاركان في بعض التظاهرات. في تلك الأيّـام كانت الأوتوبيسات تسير من دون لوحات والمقاهي تقفل باكراً كان النّاس يتعجّلون العودة إلى بيوتهم. كان الخوف سائداً. كان الزّوجان يخرجان

26- جلدِيًا (لفظٌ متداول في العاميّة ويعني سطحيّاً).

مستاءيْن للغاية. كانت الخامسة وكان المطر ينزل خفيفاً. كانا ينظران إلى بقيّة المتظاهرين بابتسامات صغيرة متشنّجة، كانا يبحثان عن أصدقائهما مُحاولَيْن الحديث في مواضيع أخرى. ثمّ تتشكّل الحشود وتضطرب بين مسير وتوقّف. وسط الحشد أمكنهما رؤية المداد الأسفلتيّ الكبير، كئيباً ومُبلّلاً، ثمّ على عرض الشّارع خطّاً أسود مؤلّفاً من فيالق الأمن الجمهوري. كان موكب من الشّاحنات الزّرقاء الدّاكنة، ذات النّوافذ المُشبّكة يعبر من بعيد. ترنّحا، كان أحدهما يمسك الآخر بيد متعرّقة، بالكاد يصرخان، راكِضيْن عند أوّل إشارة.

لم يكن لكلّ ذلك معنى. كانا أوّل من ثاب إلى رشده بين المتظاهرين متسائلين أحياناً عمّا يفعلانه في قلب الزّحام، في البرد، تحت المطر، في تلك الأحياء البائسة –«لا باستي»، La Bastille، «لا ناسيون» La nation، نزل المدينة. كم تمنّيا لو أنّ شيئاً ما أكّد لهما أنّ ما يقومان به كان مُهمّاً، ضروريّاً، لا يُعَوّض، أنّ الجهود التي يبذلانها كان لها معنى وأنّهما كانا في حاجة للقيام بذلك، شيئاً ما يساعدهما على التعرّف إلى نفسيْهما، على التحوّل والعيش بكرامة. لكن لا؛ حياتهما كانت في مكان آخر، في مستقبل بعيد أو قريب، مليء بالتّهديدات هو أيضا، لكنّها تهديدات أكثر ذكاءً وغموضاً: كمائن محتومة واجتماعات تقييميّة مُشرّفة.

عمليّة «ايسي لي مالينو»[27] Issy-les-malineaux والتظاهرة القصيرة التي تلتها كانت بمنزلة الإذن بانتهاء نشاطهما النّضالي. اجتمعت النقابة المناهضة للفاشيّة التي في حيّهما مرّة أخرى وتعهّدت بتكثيف نشاطها. لكن خلال اللّيلة التي سبقت العُطلة، بدا الانتباه بلا معنى.

27- «ايسي لي مالينو» Issy-les-malineaux (مقاطعة باريسيّة تقع على الضفة الشّمالية لنهر السين).

الفصل VIII

لم يجدا تحديداً ما يمكن أن يُفسّرا به ما الذي تغيّر بنهاية الحرب. بدا لهما وقتاً طويلاً أنّ الانطباع الوحيد الذي قد يشعران به هو الإحساس بأنّ هناك شيئاً قد انتهى، إنّها النّهاية، خاتمة شيء ما. ليست نهاية سعيدة، ليست مسرحيّة، بل بالعكس، كانت نهاية يلفّها الحرمان والحزن، تاركة خلفها شعوراً بالفراغ والمرارة، نهاية أغرقت كلّ الذّكريات الجميلة. أصبح السّلام سلاماً لم يعرفاه من قبل؛ انتهت الحرب. سقطت سبعُ سنوات في العدم: سنوات الجامعة، سنوات تعارفهما، أجمل سنيّ حياتهما.

ربّما لم يتغيّر شيء. يحدث أحياناً أن يتأمّلا السّاحة من النّوافذ، الحدائق الصّغيرة، أشجار الكستناء، أن يستمعا إلى شدو العصافير. كُتُبٌ أخرى وأسطوانات أخرى جاءت تعمّر الرّفوف المتأرجحة. بدأت الماسة القارئة للإلكترو فون تتقادم.

لم يتغيّر عملهما: كانا يعيدان الحوارات كما كانا يفعلان قبل ثلاث سنوات: كيف تحلقون لحاكم؟ هل تُلمّعون أحذيتكم؟ شاهدا أفلاماً وأعادا مُشاهدتها، سافرا واكتشفا مطاعم أخرى. اقتنيا قمصاناً وأحذية، سترات وتنانير، صحوناً وأغطية وأغراضاً مُستعملة وخردة.

ما طرأ كان خبيثاً جدّاً، غامضاً، ومرتبطاً بماضيهما، بأحلامهما. كانا هناك. لقد تقدّم بهما السنّ. نعم. بدا لهما في بعض الأوقات أنّهما لم يبدآ حياتهما بعد. لكنّ حياتهما تزداد وهميّة في عينيهما، وأحسّا أنّهما مسلوبا

الإرادة، بلا قوّة، كما لو أنّ الانتظار، الانزعاج، الضّيق، قد استنزفتهما بالكامل، كما لو أنّ كلّ شيء كان من صنع الطّبيعة وحدها: الرّغبات غير المُحقّقة، السّعادة غير المُكتملة والزّمن الضّائع.

ودّا لو دام كلّ شيء، لو أنّ شيئاً لم يبرح مكانه. عندها لن يكون عليهما سوى الانسياق فحسب. كانت ستتهدهد حياتهما بعذوبة. ستمتدّ على مدى أشهر طويلة، سنوات طويلة، من دون أن يتغيّر شيء، من دون أن تجبرهما الحياة على شيء. لن تكون سوى تتابع ناعم للأيّام واللّيالي، تعديل لا يكاد يُلاحَظ، إعادة مستمرّة لنفس المواضيع، غبطة دائمة، لذّة أبديّة لا أحد يعكّرها أو يحاول تحريفها.

أحياناً لا يعودان قادرين على الاستمرار. يريدان أن يقاوما وينتصرا. يريدان أن يكافحا، ويجتاحا السّعادة في عقر دارها. لكن كيف السّبيل إلى ذلك؟ كيف يقاومان؟ من يقاومان؟ كانا يعيشان في عالم غريب وبرّاق، عالم يعكس حضارة بيع وشراء، سجن مُهمَل، فخاخ منصوبة تحفّ بها السّعادة من كلّ جانب.

أين الخطر؟ أين التّهديد؟ ملايين البشر دخلوا في حرب ولعلّهم يحاربون إلى اليوم لأجل الخبز. لم يكن جيروم وسيلفي يؤمنان أنّ على المرء المحاربة لأجل كنبة «شسترفيلد» chesterfield. لكنّه من جهة أخرى القانون الذي نظّم حياتهما إلى حدّ الآن. لم يبدُ أنّ هناك ما يهمّهما في البرامج والمُخطّطات: كانا يسخران من التّقاعد المُبكّر، من العُطل الطّويلة، من غداء منتصف النّهار المجانيّ، من أسابيع الثّلاثين ساعة. كانت مهجتهما مُعلّقة في الإفراط؛ كانا يحلمان بمُشغّل أسطوانات «پلاتين كليمون»، بالشّطآن المُقفرة لهما وحدهما، بجولة حول العالم، بقصور فخمة.

كان الملل غير مرئيّ. أو بالأحرى أنّه كان في داخلهما، عفّنهما، وأفسدهما، ودمّرهما. كانا مثل دِيَكَة عيد الميلاد الرّوميّة. كائنَيْن صغيرَيْن مُطيعَيْن، الانعكاس النّموذجيّ للعالم الذي يتفنّن في تعنيفهما. كانا غارقين حتّى العنق في كعكة لن ينالا منها سوى الفتات.

ظلّت أزماتهما فترة طويلة غير قادرة على التّأثير على مزاجهما. كانت تبدو لهما غير قاتلة على أيّ حال؛ لم تكن تحمل في طيّاتها مراجعات صارمة. كانا دائماً يقولان إنّ الصّداقة توفّر لهما الحماية. كانت اللُّحمة بين الأصدقاء تشكّل ضماناً آمناً، دعامة يمكنهما التّعويل عليها. كانا يشعران أنّهما مُحصَّنان ما دامت الرّوابط بينهما وبين أصدقائهما قويّة، ما داموا متكاتِفين، ولم يكونوا يحبّون شيئاً أكثر من الالتقاء عند هذا أو ذاك، عند بعض نهايات الأشهر الصّعبة بشكل خاصّ، جالسين حول طاولة وأمامهم صحن من البطاطا المطبوخة أو المقلِيّة، متقاسمين سجائرهم الأخيرة بمحبّة.

لكن، حتّى الصّداقة تنطفئ، خلال بعض الأمسيات يحدث أن تلتقي العيون والأصوات داخل الغرف الصّغيرة فيما يشبه المواجهة. خلال بعض الأمسيات أمكنهم أن ينتبهوا إلى أنّ كلماتهم الأولى، المُتَّفَقِ عليها، مزاحهم المألوف، عالمهم المُشترك، لغتهم المُشتركة، إيماءاتهم المُشتركة التي طوّروها بمرور الوقت، لا تؤدّي إلى شيء ذي قيمة: كان عالماً مُجعّداً، عالماً في رمقه الأخير لا يفضي إلى أيّ نتيجة. لم تكن حياتهم عبارة عن مغامرة، كانت تيهاً وشتاتاً. لاحظوا، إذًا، إلى أيّ حدّ كانوا محكومين بالعادة، بالجمود. كانوا معاً يشعرون بالضّجر، كما أنّ شيئاً لم يجمعهم غير الفراغ. حفلات الشّراب والكلمات المتقاطعة والنزهات في الغابة والمآدب الكبيرة، الحوارات الطّويلة حول أحد الأفلام، الطّرائف، فترة طويلة هي التي شكّلت مغامرتهم الوحيدة، قصّتهم، حقيقتهم. لكنّها في الواقع لم تكن سوى جمل مُقعّرة، حركات خاوية من المعنى، لا وزن لها، لا مُستقبل لها، كلمات تكرّرت ألف مرّة، أيادٍ تصافحت ألف مرّة، طقس لم يعد يحميهم من شيء.

قضوا ساعة كاملة للاتفاق حول الفيلم الذي سيشاهدونه. كانوا يتكلّمون كي لا يقولوا شيئاً في النّهاية، ويلعبون الأحجيات واللّوحات الصّينيّة. كان كلّ زوج عاكفاً يتحدّث بمفرده عن الآخرين أو عن نفسِه؛ تذكّروا شبابهم بحنين كبير، يذكرون كيف كانوا متحمّسين، تلقائيّين

ومُكتنزين بالمشاريع الحقيقيّة، والصّور الممتعة، والرّغبات. كانوا يحلمون بصداقات جديدة؛ لكنّهم لم ينجحوا إلا في تخيّلها.

تشتّت الجمع، ببطء وببداهة جامحة. بفجائية عنيفة في كثير من الأحيان، إذ خلال أسابيع بالكاد، أصبح مؤكّداً بالنّسبة إلى البعض أنّ الحياة القديمة لم تعد ممكنة. كان السّأم قويّاً. وكان العالم حولهم متطلّباً جدّاً. الذين عاشوا في غرف يعوزها الماء، والذين تناولوا وجباتهم بربع رغيف، الذين ظنّوا أنّهم سيعيشون كما يحلو لهم، الذين جذبوا الحبل من دون أن ينقطع، هؤلاء عادوا إلى جذورهم؛ وعلى نحو طبيعيّ تقريباً، وبموضوعيّة، لاحت أمامهم ضرورة البحث عن عمل قار كنوع من الإغواء، كان لابدّ من إيجاد وظيفة صلبة يجنون من ورائها المنح والمرتّبات المضاعفة.

تساقط الأصدقاء الواحد تلو الآخر. حلّت حياة الحذر محلّ الحياة المنفلتة من كلّ الحبال. لا يمكننا الاستمرار في العيش بهذه الطّريقة مدى الحياة، قالا. وهذه الـ «بهذه الطّريقة» كانت حركة باليد، هي كلّ هذا: حياة الانفلات، اللّيالي القصيرة جدّاً، البطاطا، البدلات المهترئة، الأعباء، الرّكوب في المترو.

رويداً ومن دون تفكير، وجد جيروم وسيلفي نفسَيْهما وحيدَيْن. لم تكن الصّداقة ممكنة حقّاً إلاّ إذا تكاتف الجميع، وعاشوا نفس الحياة. لكن أن يملك أحد الأزواج ما يعتبره الآخرون ثروة، أو وعداً بثورة في المستقبل، وأن يختار الآخر حُرّيته فهما عالمان على طَرَفَيْ نقيض. لم يكن ذلك تشويشاً عابراً، إنما تصدّعات وفجوات عميقة، جراح لن تندمل من تلقاء نفسها. انعدام ثقة لم يكن مطروحاً قبل أشهر، أصبح حاضراً بينهم. كانوا يتكلّمون بعضهم مع بعض بأطراف الشّفاه؛ لاح أنّهم سيتحدّون بعضهم في كلّ لحظة.

كان جيروم وسيلفي قاسيَيْن وغير عادلَيْن. تحدّثا عن الخيانة والتنحّي. كانا مبتهجيْن وهما يتحدّثان عن القدرة الماحقة التي يحاول

المال إخضاعهم إليها، والتي حسب رأيهما، مازالا في منأى عنها. كانا شاهدين على أصدقاء قدامى وهم يستقرّون في وظائف ذات تسلسل هرميّ صارم، ويتكيّفون مع عالمهم الجديد. رأياهم وهم يتسطّحون ويخنعون ويغرقون في لعبة السّلطة والتّأثير والمسؤوليّة. عبر هؤلاء، اعتقدا أنّهما اكتشفا العالم المناقض تماماً لعالمهما: ذاك العالم الذي يبرّز المادّة، والعمل والدّعاية والكفاءة، عالماً يُثمّن التّجربة وينفي أصحابها، عالمَ كوادر جادّين، عالمَ القوّة: لم يكونا في منأى عن التّفكير بأنّ أصدقاءهما سقطوا في الهاوية.

لم يكرها المال. ربّما، على العكس، كانا يحبّانه أكثر ممّا يجب: كان في وسعهما أن يميلا إلى الاستقرار والثّبات والسّبيل الواضح نحو المُستقبل. كانا متنبهيْن إلى كلّ إشارات الدّيمومة: يريدان أن يكونا ثريّيْن. وما رفضهما للثّراء سوى لأنّهما ليسا في حاجة إلى راتب: لم يكن خيالهما وثقافتهما ليسمحا لهما سوى بالتّفكير في الملايين.

كانا أحياناً يتنزّهان في المساء، يستنشقان الهواء ويلعقان الواجهات بنظراتهما. كانا يتركان خلفهما الحيّ الثالث عشر القريب منهما، الذي لم يعرفا منه سوى شارع «غوبلان»، بسبب قاعات السّينما الأربع الموجودة فيه، مُتجنّبَيْن شارع «كوفيي» الكئيب، الذي لا يفضي إلا إلى ضفّة أكثر كآبة هي محطّة «أوسترليتز» Austerlitz، ثمّ يتّخذان شارع «مونج» Monge، فشارع المدارس، قبل الوصول إلى «سان ميشيل»، «سان جيرمان»، ومن هناك، حسب الأيّام أو المواسم، القصر الملكي، الأوبرا، أو محطّة «مونبارناس»، «فافان» Vavin، شارع «أسّا» Assas، «سان سولبيس» Saint-Sulpice، اللكسمبرغ. كانا يمشيان بتأنٍّ. ويتوقّفان أمام جميع باعة الأثاث القديم، يلصقان عيونهما على الواجهات المُعتمة، يُميّزان، خلف القضبان، الانعكاس الأحمر لكنبة جلديّة، رسوم الطّبيعة على الصّحون الخزفيّة، بريق كأس مُزخرف أو شمعداناً من النّحاس، الرقّة الرّائعة لكرسيّ من القصب.

من محطّة إلى أخـرى، أمام بائع أثاث مُستعمَل، مكتبة، بائع أسطوانات، مطاعم، وكالات سفر، بائعة ملابس جاهزة، حائكين حلوانيّين، قصّابين، ورّاقين، كان خطّ مسيرهما هو الذي يحدّد عالمهما الحقيقيّ: هناك يتّجه طموحهما، وآمالهما. هناك كانت الحياة الحقيقيّة، الحياة التي يعرفانها، التي يريدان أن يعيشاها: لأجل سمك السّومون وهذه الزّرابي والكريستال أنّ موظّفة وحلاّقة وهبتاهما الحياة.

في اليوم الموالي، عندما تطحنهما الحياة من جديد، عندما تُستأنَف ماكينة الدّعاية التي طالما كانا بيادقها المُخلصين، سيكتشفان أنّهما لم ينسيا الأشياء السّاحرة المُتراصّة، الأسرار التي عرّتها جولتهما اللّيليّة. يجلسان قبالة أناسٍ يؤمنون بالماركات الكبيرة، والشّعارات والصُّوَر التي تُعرض عليهم، أولئك الذين يأكلون دهون البقر المُربّعة ويجدون أنّ العطور النّباتيّة الطّبيعيّة ورائحة البندق طيّبة للغاية (لكن هما، من دون معرفة السّبب، وبإحساس جاد، يكاد يكون مُربكاً أنّ هناك أمراً يفوتهما، لا يجدان تلك اللاّفتات جميلة، ولا تلك الشّعارات رائعة، ولا إعلانات بعض الأفلام مُذهلة). يجلسان ويُشغّلان آلة الأسطوانات، يقولان همم همم على النّحو المطلوب، لقد باتا يغشّان في الحوارات ويتعجّلان في القيام بتحاليل النّتائج، كانا يحلمان بأمر آخر.

الفصل XI

كيف تتكوّن ثروة؟ كانت تلك معضلة عويصة. رغم ذلك، كان هناك أشخاص معزولون، يبدو أنّهم تمكّنوا من حلّ المشكلة لمصلحتهم الخاصة. وهذه الأمثلة العُليا، الكافلة للقوّة الفكريّة والأخلاقيّة لفرنسا، بوجوهها المُبتسمة الحكيمة، الماكرة، المبادرة، الطّافحة بالصحّة والقرار والتّواضع، كانت وجوهاً تدين بالصّبر وقيادة الآخرين، أولئك الجامدين في مكانهم، المُتعثّرين، المُكبّلين، الذين لم ينجحوا سوى في عضّ الغبار.

كانا يعرفان كلّ شيء عن الصّعود إلى الثّروة، فرسان الصّناعة، مهندسين نزهاء، قروش المال، أدباء لا يشطبون كلمة واحدة، روّاد رحلات طويلة حول الأرض، تجّار حساء الأكياس، منقّبي الضّواحي، مغنّين، رجال لذّة، صيّادي الذّهب، صنّاع الملايين. قصّتهما كانت بسيطة. كانا في سنّ الشّباب بعدُ، كانا لا يزالان جميلَيْن، وفي عمق العيون كان هناك بريق التّجربة، الصّدغان رماديّان بسبب السّنوات السّوداء، الابتسامة العريضة الدّافئة التي تُخفي أسناناً طويلة، والصّوت السّاحر.

يريان نفسيْهما في هذا الدّور. سيكون لهما ثلاثة فصول في الدّرج. ستحتوي حديقتهما على البترول والأورانيوم. سيعيشان طويلاً في البؤس والتململ. سيتمنّون ركوب المترو ولو مرّة واحدة. ثمّ فجأة، بعنف، وعلى نحو غير متوقّع، كانفجار رعد: الثّروة! ستُقبَل مسرحيّتهما ويُكتَشَف منجمهما وسيعترف بهما العالم. ستتهافت عليهما العقود وسيشعلان سجائر الهافانا بأوراق ذات ألف.

سيكون صباحاً كغيره. ستنزلق ثلاثة ظروف تحت البوّابة، طويلة كأنّها شريط، ستكون عناوينها ضخمة، وستكون الرّسائل مطويّة ومنقوشة ودقيقة ومتشابهة، مكتوبة بآلة (أي بي أم). سترتعش أيديهما وهما يفتحانها: ستكون ثلاثة صكوك ذات مجموعات من الأرقام. أو رسائل من هذا النّوع:

«سيّدي،

«عمُّكُم السيّد «بودفان»، تُوُفي ولقد ترك...» سيفركان عينيهما غير مُصدِّقَيْن، ظنّاً منهما أنّهما كانا يحلمان؛ سيفتحان النّافذة على مصراعيها.

هكذا كان يحلم الغبيّان السّعيدان: بإرث مهول، بالفوز في اليانصيب الكبير، في الرّهان على الخيول. أن ينفجر بنك مونتي كارلو؛ حقيبة منسيّة في قاطرة مُقفرة: رزم أوراق ماليّة من الحجم الكبير؛ عقد من اللؤلؤ في اثنتيْ عشرة محارة. أو زوج كنبات ملكيّة لدى ريفيّ أمّي في مقاطعة «بواتو».

حملهما نسق سريع. أحياناً كانت تندّ عنهما رغبة مجنونة في أن يصبحا غنيين فوراً، وكان ذلك يدوم ساعات وأيّاماً بأكملها ولا تتركهما أبداً. كانت رغبة كالهوس المرضي، كانت ضغطاً قويّاً تمكّن من السّيطرة على جميع حركاتهما. تحوّلت معه الثّورة إلى أفيون. كانا يستسلمان من دون ضابط للهذيان والتخيّل. حيثما اتّجها كان همّهما الوحيد هو المال. كانت لديهما كوابيس تدور حول ملايين الجواهر.

كانا يحضران المبيعات الكبرى «دروو»[28] Drouot (أروقة بيع بالمزاد العلني)، و«غايرا» Galliera. اقتربا من السيّد الذي يمسك الكتالوغ في يديه، متفحّصا اللّوحات. شاهدا هنا وهناك لوحات «ديغا» Dégas، طوابع بريديّة نادرة، قطعاً ذهبيّة مُضحكة، منشورات هشّة للافونتين مُسفرة من قِبَل «ليديرير» Lederer، أثاثاً رائعاً عليه ختم «كلود سيني» أو

28- «دروو» Drouot (أروقة بيع بالمزاد العلني).

«أولمبرغ»، علب تبغ ذهبيّة أو من العاج. قدّمهما منظّم المزاد للحلقة؛ جاء بعض الأشخاص الذين تبدو عليهم الجدّية لاشتمامهما؛ عبرت الهمسات الصّالة الكبيرة. بدأ المزاد. وتسامقت الأثمان. ثمّ ضُرِبَ بالمطرقة، انتهى، واختفى الغرض، خمسة أو عشرة ملايين في متناول اليد مرّت أمام عيونهما.

تتالت المبيعات. كان المُشترون، أحياناً، أناساً سعداء ميّتين، سماسرة مزاد، سكرتيراً خاصاً لأحد الأثرياء، رجال قصب. وكان ذلك يضطرّهم إلى المرور أمام منازل عارية من كلّ زينة، درب «أوسوالدو كروز»، شارع «بوسيجور»، شارع «ماسپيرو»، شارع «سپونتيني»، ڤيلا «سعيد»، شارع الـ «رول»، خلف القضبان المُشبّكة، ساحات مبلّطة بالحصى، ستائر بالكاد مسحوبة تسمح برؤية غرف باهتة الإضاءة: لمحا حدود الكنبات، لطخة غير واضحة للوحة انطباعيّة. وعادا أدراجهما مشغولَيْ الفكر، حانِقَيْن.

ذات يوم، حدث أن حلما بالسّرقة. تخيّلا نفسَيْهما مُرتدِيَيْن الأسود، ومصباح كهربائي في اليد، كلاّبة، أداة قصّ زجاج في الجيب، وقد اقتحما مع حلول اللّيل، مبنى، دخلا القبو حيثُ استقلّا المصعد ليجدا نفسَيْهما في المطبخ. سيكون منزل ديبلوماسيّ في مهمّة، موظّف ماليّة مُتحيّل يملك ذوقاً راقياً، مُخادع كبير، هاوٍ مُثقّف جدّاً. يعرفان كلّ زاوية في البيت. يعرفان أين يجدان عذراء القرن الثاني عشر الصّغيرة، اللّوحة البيضويّة لـ «سيباستيانو دِل پيومبو»، رسوم «فراغونار»، تحفتَيْ «رونوار» الصّغيرَتَيْن، لوحة لـ «ماكس أرنست»، و«ستايِل»، نقوداً، علب موسيقى وعلب حلوى، قطعاً فضّية وخزف «ديلفت» Delft. ستكون حركاتهما بالغة الدقّة ومُحدّدة سلفاً، كما لو أنّهما كرّراها مراراً عديدة. سيتحرّكان غير مُتعَجِّلَيْن، بثبات، وحزم، «أرسين لوبين» العصر الحديث. ما من عضلة واحدة في وجهَيْهما ترتعش. سيُفتَحُ الزجاج واحداً بعد الآخر، ستُنتَزع اللّوحات المُعلّقة على الجدار،

في الأسفل، ستكون سيّارتهما في انتظارهما. سيكونان قد ملآها بالوقود ليلة البارحة. سيكون جوازا سفرهما نظاميين. لقد قرّرا الرّحيل منذ زمن. الحقائب في انتظارهما في «بروكسيل». سيتّخذان طريق بلجيكا، سيعبران الحدود من دون ازدحام. ثمّ رويداً، وعلى مهل سيتجاوزان الـ «لوكسمبورغ»، «أونفير»، «أمستردام»، «لندن»، والولايات المُتّحدة، وأمريكا اللاّتينيّة، وسيبيعان غنيمتهما. سيقومان بجولة حول العالم. سيُسافران كما يشاءان. ثمّ أخيرا سيختاران بلداً يكون مناخه لطيفاً. سيشتريان، على بحيرات إيطاليا، في «دوبروفنيك»، في «باليار»، في «كافالو»، بيتاً كبيراً من الحجارة البيضاء، ضائعاً وسط المُتَنَزّه.

لن يفعلا شيئاً بالطّبع. لن يقتنيا ورقة يانصيب وطنيّة واحدة. سيُلاحظان خلال ألعاب البوكر -التي سيكتشفان أنّه الملجأ الوحيد لصداقاتهما المُتعَبَة- مثابرة تبدو مشبوهة في بعض الأوقات.

سيلعبان في بعض الأمسيات، أسابيع بأسرها، ثلاث أو أربع جولات، وكلّ منها تجعلهما يسهران حتّى مطلع الصّباح. سيراهنان بالقليل، بالقليل جدّاً، ما يكفي لمنحهما الشّعور بالمخاطرة ووهم الرّبح. مع ذلك، عندما يرميان على الطّاولة أوراقاً هزيلة، أو لوناً سيّئاً، وقد راهنا بثلاث مئة فرنك قديم، ولا يجمعان الحزمة إلاّ وقد أصبحت ستّ مئة فرنك. ما خسراه في ثلاث رميات ربحاه في رمية واحدة، عندها ستتهلّل أساريرهما بابتسامة ظفر: لقد أخضعا الحظّ لإرادتهما؛ شجاعتهما الضّئيلة آتت أكلها؛ لم يكونا بعيدَيْن عن الإحساس بالبطولة.

الفصل X

تحقيق فلاحي أفضى بهما إلى جولة في كامل فرنسا. ذهبا إلى «لورين»، «سينتونيْ»، «پيكاردي»، «بوس»، و«ليمانيْ». التقيا عدول تنفيذ من الجيل القديم، تجّار جُملَة تجوب شاحناتهم ربع فرنسا، صناعيّين من ذوي النّشاط المُزدهر، مزارعين «جنتلمان» من أولئك الذين يرافقهم على الدّوام عمّال متأهّبون لتلقّي الأوامر وقطيع من الكلاب الحمراء.

كانت السّقائف طافحة بالقمح؛ جرّارات رابضة قبالة سيّارات السّادة السّوداء. قطعا مطاعم العُمّال، المطبخ الهائل حيثُ تعمل بضع نساء، القاعة المُشترَكة ذات الأرضيّة المُصفَرَّة، حيثُ لا أحد يتنقّل بغير نعال لباديّة، بموقدها الضّخم، التلفزيون، الكنبات ذات الأجنحة، خزائن الخيزران، النّحاس، القصدير، الخزف. نهاية ممرّ ضيّق تعبق بالرّوائح، بابٌ يفتح على المكتب. كانت حجرة صغيرة لكثرة أغراضها. إلى جانب هاتف قديم بمقبض التّشغيل، مُعلّق على الجدار، مُخطّط يُلخّص الحياة في المزرعة، الزّراعة، المشاريع، طلبات العروض، المواعيد؛ رسم مُقنع يُخبرُ بالإنتاج في أوجهه. على طاولة ملآنة بالوصولات وأوراق الخلاص، بمُفكّرات ووثائق، دفتر مُسفَّر بقماش أسود، مفتوح على تاريخ اليوم، يسمح برؤية جداول الحسابات الطّويلة. شهائد مؤطّرة -ثيران، أبقار حلوب، خنازير مُتوّجَة - تجاور قطعاً من السجل العقاري، ممهورة من قبل السّلطات العليا، صور فوتوغرافية للقطعان

وحظائر الدّجاج، ورسوم بأربعة ألوان لجرّارات وحاصدات وآلة تقليع وآلة بذر.

هناك وضعا جهاز التّسجيل. كانا مُطالَبَيْن بالتّحقيق حول اقتحام الزّراعة الخطير للحياة العصريّة، التناقضات القائمة في صلب الاستغلال الريفي الفرنسي، مزارع الغد، السّوق المُشتركة، القرارات الحكوميّة فيما يخصّ القمح واللّفت السُكّري، الحظائر الحُرّة ومساواة الأسعار. لكنّ خيالهما كان في مكان آخر. رأيا أنّهما يتجوّلان في المنزل المهجور. يصعدان السُلّم، يدخلان الغرف حيثُ النّوافذ مُغلقة والرّائحة خانقة. تحت أغطية صوفيّة ينعم أثاث مُوَقّر بالسّلام الأبدي. يفتحان خزانة عالية طولها ثلاثة أمتار، مليئة بالأغطية المُعطّرة بالخزامى، بالأباريق والأواني الفضّية.

في ظلمة الغرف العلويّة اكتشفا كنوزاً لا اختلاف في شأنها. وفي الأقبية التي لا تنتهي، كانت في انتظارهما براميل وجرار ملآنة بالزّيت والعسل وحاويات اللحم المُقدّد، جومبون مُدخّن، براميل خشبيّة لتعتيق النّبيذ.

تجوّلا في غرف الغسيل، في مخزن الخشب، في مخزن الفحم، في مخزن الغلال حيث نُضّد الإجّاص والتفّاح في صفوف لا تنتهي، في غرف الحليب ذات الرّوائح القويّة حيثُ تُحفَظُ كُتل الزّبدة الطّازجة من تلك التي تحافظ على لمسة رطبة، دنانٌ من الحليب، أواني الكريمة الطّازجة، الجبن الأبيض والجبن الذّائب.

قطعا إسطبلات، وحظائر، ورشات ومُستودعات حدادة، مرأباً وأفراناً تُجهّزُ فيها أرغفة ضخمة، صوامع منتفخة من الأكياس، مُستودعات نظيفة.

من فوق خزّان الماء، شاهدا المزرعة برمّتها، بساحاتها المُعبّدة الأربع وبوّاباتها ذات الرؤوس الحربيّة، حظيرة الدّجاج، زريبة الخنازير، البستان، الطّريق المحفوف بأشجار الجمّيز، وحولها حتّى انحباس البصر حقول القمح الصّفراء، الوهاد، الشّعاب، المراعي، الآثار السّوداء، المستقيمة، للطّرقات التي يُشاهَد فيها، أحياناً، وميض سيّارة، وخطوط السّندبان المتعرّجة المحاذية لوديان بالكاد تُلاحَظ، غائبة في الأفق نحو تلال ضبابيّة.

لاح، إذاً، سراب آخر. كانت هناك أسواق ضخمة، أروقة تجاريّة لا نهاية لها، مطاعم عجيبة. قُدّم إليهما كلّ ما يؤكل وكلّ ما يُشرب. صناديق وقفاف وسلال تفيض تُفّاحاً أصفر وأحمر، إجّاصاً مستطيلاً، وعنباً أحمر. رفوف من المانجا والتّين، البطّيخ والدلاّع واللّيمون والرمّان، أكياس لوز، وبندق وفستق، موز مُجفّف، معجون غلال، تمر مُجفّف أصفر وشفّاف.

كانت هناك فضاءات رحبة مُخصّصة لقصّ اللّحم، معابد بألف عمود إلى السّقف من الجمبون والنّقانق، مخابئ مُعتمة انتصبت فيها جبال من أعواد الذّرة، نقانق الخنزير المضفورة كالحبال، براميل من المُخلّلات، والزّيت البنفسجي، وسمك الأنشوجا المُملّحة، والخيار الرّقيق.

أو، على ضِفّتَيْ الطّريق سياج من خنازير الحليب، خنازير برّية مُعلّقة من سيقانها، لحم بقري، أرانب، إوزّ دهني، غزلان بعيون زجاجيّة.

مرّا ببقالات تعبق بروائح لذيذة، حلويات رائعة اصطفّت فيها التورتة بالمئات، مطابخ مُذهلة ذات ألف قدر نحاسيّ.

غرقا في الوفرة. قادتهما خطاهما نحو سوق ضخم، انبجست أمام عيونهما جنان من الجمبون، والجبن والكحول. نُصبَت طاولات مُزيّنة بأغلفة برّاقة، وزهور وافرة، عليها أوان من الكريستال والخزف النّفيس. كان هناك أرغفة بالعشرات، بطاطا مطبوخة، سومون، كراكي، سلمون، سرطانات بحر، أفخاذ مشويّة، أرانب وبطّ، خنازير برّية مُدخّنة، جبن مضغوط في قوالب ضخمة، وجيش من القوارير.

لاحت عربات تجرّ قاطرات مشحونة بلحم البقر الدّهني؛ ركنت شاحنات تُقلّ نعاجاً تثغو، صناديق جراد بحر مُرصّفة في شكل هرميّ. خبز بالملايين يخرج من آلاف الأفران. أطنان من القهوة أُنزلت من السُّفن.

ثمّ بعيداً –بعيون نصف مُغمضة – وسط الغابات والأراضي المُعشّبة، على امتداد الجداول، على أبواب الصّحارى، ناحية البحر، على مساحات مُمَهّدة بالمرمر، شاهدا مدناً تعلو ذات مئة طابق.

تمشّيا بمحاذاة الواجهات الفولاذيّة، الخشب النّادر، الزّجاج، الرّخام. في الفناء المركزي، على طول جدار من بلّور مُزخرف يعكس ملايين أقواس قزح، ينهال شلاّل يحفّه سُلّمان حلزونيّان مُدوّخان من الألمنيوم.

حملهما مصعد. اتّبعا ممرّاً مُتعرّجاً، ارتقيا درجات من الكريستال، جابا أروقة سابحة في الضّوء، حيثُ صُففت على مرمى البصر تماثيل وزهور، وتسيل جداول صافية على مجرى من الحصى المُلوّن.

فُتحت أمامهما أبواب. اكتشفا مسابح في السّماء، أفنية، قاعات قراءة، غرفاً صامتة، مسارح، أقفاص طيور، حدائق، أحواض سمك، متاحف مُصغّرة، صمّمت خصّيصاً تماشياً مع ذوقهما ولأجلهما فحسب، غرفة عُلّقت في زواياها الأربع صور فلمنديّة. قاعات ليست سوى صخور، وأخرى ليست سوى أدغال؛ على أخرى يطيب للبحر أن يتكسّر؛ وفي أخرى يختال طاووس. من سقف إحدى القاعات تتدلّى ألف شمعة. متاهات لا متناهية تصدحُ نغمات مرحة؛ حُجرة ذات أشكال غريبة، لا دور لها، على ما يبدو سوى إحداث صدى لا يهدأ أبداً؛ أرضيّة أخرى، تُذكّر، حسب ساعات النّهار، بلعبة شديدة التّعقيد.

في الأقبية الهائلة، وعلى امتداد البصر، آلات هادئة تشتغل.

تركا أنفسهما ينساقان من سحر إلى آخر، من مفاجأة إلى أخرى. كان يكفيهما مجرّد العيش، أن يكونا هناك، كي يهب لهما العالم نفسه. ستجوب قطاراتهما وبواخرهما وصواريخهما الكوكب بأسره. العالم مُلكٌ لهما بريفه الزّاخر بالقمح، بحاره الزّاخرة بالسّمك، قممه، صحاريه، بواديه المُزهرة، شطآنه، جُزره، أشجاره، كنوزه، مصانعه العملاقة، مهجورة منذ زمن، مطمورة تحت الأرض، حيثُ تُحاكُ لهما أفضل الملابس، وأجمل أثواب الحرير.

سيعرفان عدداً لا حصر له من أنواع السّعادة. رحلا مع الأحصنة البرّية، عبر سهول مكسُوّة بالعشب العالي. سيتسلّقان أعلى القمم.

سيتزلان مسالك التّزحلق، المنحدرات المفاجئة المحفوفة بأشجار الصّنوبر العملاقة. سيسبحان في البحيرات الهادئة. سيمشيان تحت المطر، مُستنشقَيْن رائحة العشب المبتلّ. سيتمدّدان عرضة للشّمس.

من الأعلى انتبها إلى حقول مُزهرة. تنزّها في الغابة من دون حدود. مارسا الحبّ في الغرف المغمورة بالظّلال، المفروشة بالزّرابي، حيثُ الأرائك العميقة في كلّ زاوية.

ثمّ حلما بالخزف النّفيس، المزخرف بالطيور الاستوائيّة، بالكتب المُجلّدة، المطبوعة من قِبَل الـ «إلزڤير»[29] Elzévir على ورق ياباني بالطّريقة التّقليديّة، بهوامش كبيرة بيضاء مريحة للعين، بطاولات «الأكجو»، بملابس حريريّة أو قطنيّة، ليّنة ومُريحة، زاهية بالألوان، بغرف واسعة مُضاءة جيّداً، بباقات ورود، بزرابي بُوخارست، بكلاب «دوبر مان» تقفز هنا وهناك.

كان جسداهما وحركاتهما جميلة للغاية، نظراتهما مُطمَئنّة، القلبان شفّافين والابتسامات مُشرقة.

وفي ذروة المجد، رأيا أنّهما يُشيّدان قصوراً عظيمة. على سهول مُمهّدة، ألف نار أُشعلت للاحتفال، ملايين البشر جاؤوا ينشدون. وعلى شرفات ضخمة، عشرة آلاف آلة نحاسيّة تعزف موسيقى قدّاس «ڤيردي» Verdi. قصائد حُفرت على وجوه الجبال. انبجست حدائق في قلب الصّحراء. مدن بأسرها كانت مجرّد لوحات جداريّة.

إلاّ أنّ وميض الصّور هذا، كلّ تلك الصّور المتلاحقة التي لا تنفد أمام عيونهما، والتي تتدفّق باضطراب، صور الدُّوار والسّرعة والنّور والمجد، بدا لهما أوّلاً أنّه من الضّروري أن تتلاحق، بتناغم لا حدود له، كما لو أنّ منظراً آسراً ومكتملاً لاح فجأة لعيونهما المذهولة، اكتمالاً ساحراً كالظّفر، صورة مكتملة عن العالم، نظاماً منسجماً مع ذاته

29- «الزڤير» Elzévir (عائلة هولندية عريقة اشتهرت حول العالم بتسفير الكتب وطباعتها).

يمكنهما أخيراً فهمه وفكّ شيفرته. بدا لهما، في البداية، أنّ أحاسيسهما تتضاعف، ضخّمتها إلى ما لا نهاية قدرتهما على الملاحظة والشّعور، أنّ سعادة سحريّة ترافق أصغر حركاتهما، توقّع خطواتهما، وتطبع حياتهما بطابعها: العالم لهما، إنّهما يسيران أمامه، لم ينفكّا يكتشفانه. حياتهما حبّ وثمالة. شغفهما لا يعرف الحدود؛ حرّيتهما لم تكن مشروطة.

لكنّهما يختنقان تحت ركام من التّفاصيل. بهتت الصّور وتشوّشت؛ لم يكونا قادرين على استحضار أكثر من قطع ضبابيّة ومُشوّشة وهشّة، تُخلّف الهوس والحُمق والسُّخف. ما من متتالية متكاملة، فقط لوحات منفصلة عن بعضها، ما من وحدة واضحة، إنّما شظايا قلقة، كما لو أنّ تلك الصّور لم تكن، في الواقع، سوى انعكاس بعيد، مُظلم، ملامح ميض، وهميّ، يتلاشى حالما يشعّ، مُجرد غبار: انعكاس تافه لرغباتهما الأكثر حُمقاً، عظمة هزيلة تُذَرُّ في عيونهما بشكل راسخ ومؤلم، خرق من الأحلام لن يقبضا عليها أبداً.

اعتقدا أنّهما قد تخيّلا السّعادة؛ ظنّا أنّها إبداعات حرّة، رائعة، وأنّها ستغمر العالم بأمواجها المتلاحقة. اعتقدا أنّه يكفي اتّخاذ الوجهة حتّى تتحوّل خطواتهما إلى سعادة. غير أنّهما وجدا نفسيهما وحيدَيْن، جامدَيْن، خاوِيَيْن قليلاً. وفي أرض رماديّة متجمّدة، وسهوب قاحلة: ما من قصر مُشيّد على أبواب الصّحراء ما من فضاء سيصلح لهما أفقاً.

من مغامرة السّعادة الضّائعة تلك، من الإحساس السّاحر بأنّهما أمسكا لوقت وجيز بالدّهشة وفكّا رموزها، من هذه الرّحلة الرّائعة، من هذا الغزو، من تلك الآفاق الرّحبة المكشوفة، من تلك المُتع المُتوقَّعَة، من كلّ ما بدا ممكناً من حلمهما الكبير، من ذلك الانطلاق، الأحمق، الأخرق، المشحون بإثارة لا توصَف رغم كلّ شيء، من الأحاسيس الجديدة والمتطلّبات الجديدة، من كلّ ذلك لم يبق شيء على الإطلاق: فتحا عيونهما، سمعا من جديد أصواتهما، التّمتمة المُشوّشة لمُحاوريهما، همس المُحرّك وهو يدور بوتيرة واحدة داخل

جهاز التّسجيل، لاحظا قبالتهما بجانب طقم أسلحة صُفّفت به أخمص البندقيّات والسّبطانات المُلمّعة بالزّيت، الوجه الأرقش لسجل عقاري، وفي وسطه أمكنهما التكهّن برسم الضّيعة المستطيل، الحدود الرّماديّة بأشجار الجمّيز، والخطوط المُفخّمة للطّرق الوطنيّة.

لاحقاً، سيتّخذان تلك الطّرق الرّماديّة المحفوفة بأشجار الجميز. ثمّ سرعان ما صارا نقطة صغيرة تومض في الطريق الأسود الطّويل. كانا جزيرة فقر سابحة في بحر الوفرة اللاّمتناهي. تأمّلا الحقول الصّفراء بتلك البقع الحمراء للخشخاش. أحسّا بأنّهما مسحوقَان.

الجزء الثاني

الفصل الأوّل

حاولا الهرب.

غير معقول أن يعيش المرء في الإثارة أبد الدّهر. كان التوتُّرُ على أشدّه في هذا العالم الذي يعد كثيراً لكنّه لا يقدّم شيئاً. نفد صبرهما. فهما أنّ عليهما العثور على مأوى يوماً ما. توقّفت حياتهما في باريس. لم يعودا يتقدّمان. وكانا، أحياناً، يتخيّلان نفسَيْهما -مزايداً كل منهما على الآخر بكمّ التّفاصيل الباذخة التي يحلم بها- بأنهما بورجوازيّان صغيران في الأربعين من العمر، هو، منشّط شبكة مبيعات تطرق على الأبواب (الحماية العائليّة، صابون العميان، طلبة ذوي احتياجات خاصّة)، هي، متصرّفة جيّدة، بيتهما الخاصّ بهما، سيّارتهما الصّغيرة، الإقامة العائليّة حيثُ سيقضيان العُطلة، التلفزيون أو على العكس، وهذا أفظع، ذكريات قديمة، ياقة مُجعّدة، وسراويل مُخمليّة، كلّ مساءٍ في شرفات «سان جرمان» و«مونبرناس»، يعيشان على المناسبات النّادرة، بائسين حتّى النّخاع.

كانا يحلمان بالحياة في البادية، بعيداً عن الغواية. ستكون حياتهما مقتصدة ونقيّة. سيحظيان ببيت من الحجارة البيضاء، في مدخل قرية، سراويل مُخمليّة ساخنة، أحذية ضخمة، سترات واقية، عكاز ينتهي بقبضة معدنيّة، قبعة، وسيقومان كلّ يوم بجولة في الغابة ثمّ يعودان، يجهّزان الشّاي والمشروب، مثل الإنجليز، سيضعان حطباً كثيراً في الموقد؛ فوق جهاز تشغيل الأسطوانات سيضعان أربع أسطوانات

لن يملأ سماعها أبداً، سيقرآن الرّوايات الكبيرة التي لم يجدا الوقت لقراءتها، وسيستقبلان الأصدقاء.

كان الهروب إلى الرّيف مألوفاً، لكنّه غالباً لا يُمثّل مشروعاً حقيقيّاً. تساءلا مرّة أو مرّتين حول المهن التي قد يتيح الرّيف ممارستها: لا شيء. عبرت ذهنيهما فكرة امتهان التّعليم، لكنّهما سرعان ما طرداها مع إحساس بالقرف، فقد لاح لهما الفصل المزدحم بالتّلاميذ والأيّام المرهقة. تحدّثا بصفة عامّة عن المكتبة المتجوّلة أو صنع الفخّار الرّيفي في مكان معزول. ثمّ راق لهما التّفكير في العيش ثلاثة أيّام في الأسبوع في باريس، يكسبان خلالها ما يكفل لهما مواصلة باقي الوقت، في «اليون»، أو في «الواري». لكنّها شرارة لا أمل لها في أن تمضي بعيداً. لم تخطر لهما الاحتمالات، أو الأحرى، المستحيلات الحقيقيّة.

كانا يحلمان بالتخلّي عن العمل، أن يهملا كلّ شيء، ويغادرا نحو المغامرة. كانا يحلمان بالبدء من الصّفر، أن يعيدا كلّ شيء على قواعد جديدة. كانا يحلمان بالقطع والتّوديع. اتّخذت الفكرة طريقها إليهما ثمّ تجذّرت في داخلهما ببطء.

في منتصف سبتمبر 1962 مع عودتهما من عطلة سيّئة أفسدها المطر وقلّة المال، بدا أنّهما قد اتّخذا قرارهما. نُشر إعلان في صحيفة «الوموند» Le monde، في الأيّام الأولى لشهر أكتوبر، حول الترشّح لخطّة مُدرّس في تونس. تردّدا في البداية. لم تكن الفرصة المنشودة -لقد حلُما بالهند والولايات المُتّحدة والمكسيك. لم يكن سوى عرض رديء، أرض فقيرة لا تعِدُ بأيّ ثروة أو مغامرة، لم يشعرا بالإغراء. غير أنّ لديهما أصدقاء في العاصمة تونس، زملاء دراسة قدامى، زملاء جامعة، ثمّ هناك الحرارة، البحر الأبيض المتوسّط بزرقته الآسرة، حياة واعدة، بداية أخرى، عمل آخر: اقتنعا بالتّسجيل. تمّ قبولهما. الرّحلات الكبرى يتمّ التّرتيب لها مُسبقاً. لم يحدث ذلك. فقد بدا شبيهاً بشيء ما يتسرّب من الزّمن. كان عليهما، خمسة عشر يوماً، الرّكض من مكتب إلى آخر، لأجل

الفحوصات الطبّية، جوازات السّفر، التّأشيرة، تذاكر السّفر، الأمتعة، ثمّ قبل أربعة أيّام من انطلاق الرّحلة علِمَا أنّ سيلفي التي في حوزتها إجازتان، قد تمّ تعيينها في الثّانويّة التقنيّة بـ «صفاقس»[30] على بعد مئتين وسبعين كيلومتراً عن العاصمة، أمّا جيروم الذي كان متدرّباً فقد عُيّنَ مُدرّساً في «المحرس»، خمسة وثلاثين كيلومترا بعيداً عن صفاقس.

كان خبراً سيّئاً. فكّرا في العدول عن البعثة. كان أصدقاؤهما في انتظارهما في العاصمة تونس حيثُ هُيّئ لهما السّكن. ظنّا أنّهما سيعملان في تونس. تأخّر الوقت الآن فقد سلّما بيتهما، وأقاما حفلة الوداع. لقد استعدّا للرّحيل منذ زمن. ثمّ إنّ صفاقس التي كانا بالكاد يعرفان اسمها، كانت بالنّسبة إليهما الصّحراء، آخر الدّنيا، ولم يكن غريباً أن يُفكّرا بتلك القسوة التي تدفع إليها الظّروف القصوى، أنّهما سيعيشان مقطوعَيْن عن العالم، بعيداً عن كلّ شيء، معزولَيْن كما لم يحدث لهما ذلك من قبل وقرّرا أنّ مهنة المُدرّس هي سقوط عنيف، أو على الأقلّ عبء ثقيل: تمكّن جيروم من إلغاء عقده: مرتّب واحد سيكفل لهما العيش في انتظار أن يجد عملاً على عين المكان.

سافرا. رافقهما أصدقاؤهما إلى المحطّة، وفي 23 أكتوبر صباحاً، مع أربعة صناديق من الكتب وسرير تخييم، ركبا من مرسيليا على متن سفينة «كومونذان كروبيليي» Commandant Crubellier في اتّجاه العاصمة تونس. كان البحر مُضطرباً والفطور سيئاً. شعُرا بالمرض، تناولا أقراصاً وناما بعمق. في اليوم الموالي كان في الإمكان رؤية تونس. كان الطّقسُ لطيفاً. تبادلا الابتسامات. لمحا جزيرة قيل لهما إنّ اسمها الجزيرة المُسطّحة، وشطآناً ضيّقة، وخلف «حلق الوادي»[31] بحيرة مأهولة بطيور مهاجرة. كانا سعيدَيْن برحيلهما، بدا لهما أنّهما يخرجان من جحيم

30- «صفاقس» (مدينة تقع جنوب تونس وهي ثاني أكبر مدنها وتُعرف باسم عاصمة الجنوب).

31- «حلق الوادي» (الضاحية الشّرقيّة التي سترسو فيها سفينة جيروم وسيلفي).

المترو المُكتظّ، من ليلة قصيرة، من آلام أسنان، من شكّ رهيب. لم يكونا ينظران بوضوح، كانت حياتها نوعاً من الرّقص المجنون فوق حبل رخو، حياة لا تُفضي إلى شيء: مجاعة كبيرة، رغبة عارية لا حدود لها ولا ركيزة. شعرا بالإنهاك. لقد رحلا ليدفنا نفسَيْهما، كي تهدأ العاصفة في داخلهما.

سطعت الشّمس. عبرت الباخرة، ببطء، وبصمت، القناة الضيّقة.

على الطّريق المُحاذي، كان هناك أناس واقفون داخل سيّارات مكشوفة يُلوّحون لهما. وكان في السّماء سحُبٌ متفرّقة بيضاء لا تتحرّك. اشتدّت الحرارة. كان المُتكأ على سطح الباخرة دافئاً. فوق الجسر، تحتهما، بحّارة يشغلون كراسي مُمَدّدة، يلُفّون الأغطية التي كانت تحمي الأعمدة. تشكّلت صفوف على طول ممرّ الهبوط.

وصلا إلى صفاقس بعد يومَيْن، عند حوالَيْ الثّانية ظهراً بعد سفرة دامت سبع ساعات في القطار. كانت الحرارة رهيبة، وكان قبالة المحطّة مبانٍ بيضاء ووردّية، وشارع رماديّ مُغبرّ، ومحفوف بنخل بشع وعلى الجانِبَيْن كانت منازل جديدة. بعد دقائق من وصول القطار، بعد رحيل السيّارات النّادرة الوحيدة والدرّاجات الهوائيّة سقطت المدينة في الصّمت المُطبَق من جديد.

تركا حقائبهما في الأمانة. اتّخذا شارع بورقيبة؛ بعد ثلاث مئة متر تقريباً، وصلا إلى مطعم. مروحة حائطيّة كبيرة قابلة للتّوجيه، تطنّ بوتيرة مُضطربة، على الطّاولات المُغطّاة قماش مُشمّع تجمّع عليه الذّباب بالعشرات. طرده شاب بحركة لا مبالية بواسطة منديل. أكلا بمئتَيْ فرنك، سلطة تونة ودجاجاً روميّاً.

ثمّ بحثا عن نزل، حجزا غرفة، نُقِلَتْ إليهما الحقائب. غسلا أيديهما ووجهَيْهما، تمدّدا قليلاً، غيّرا ملابسهما ونزلا. التحقت سيلفي بالثّانويّة التقنيّة، فيما ظلّ جيروم ينتظرها في الخارج جالساً على مقعد جماعيّ طويل.

عند الرّابعة بدأت صفاقس تستيقظ رُويداً. ظهر مئات الأطفال ثمّ ظهرت نساء مُحجّبات، رجال شرطة يرتدون زيّاً رماديّاً، مُتسوّلون، عربات مجرورة بالدواب، أحمرة، بورجوازيّون أنيقون.

خرجت سيلفي وفي يدها جدول أوقاتها. تجوّلا. احتسيَا البيرة وأكلا الزّيتون واللّوز المُمَلّح. كان بائعو الجرائد ينادون على صحيفة «فيجارو»، مرّ عليها يومان.

لقد وصلا.

في اليوم الموالي تعرّفت سيلفي على البعض من زملائها، ساعدوهما على إيجاد شقّة. كانت تضمُّ ثلاثة غرف فسيحة، عالية السّقف، وعارية تماماً. ممرّ طويل يُفضي إلى حجرة مُربّعة، حيثُ خمسة أبواب تفتح على الغرف الثّلاث، وعلى بيت الحمّام ومطبخ هائل. شُرفَتان تفتحان على ميناء صيد صغير. الحوض «أ» للقناة الجنوبيّة، التي كانت إلى حدّ ما تشبه «سان تروبيز»، وعلى بُحيرة كريهة الرّائحة. قاما بأولى خطواتهما في المدينة العتيقة، اقتنَيَا سريراً معدنيّاً، حاشية شعر، كنبتين من القصب، أربعة مقاعد مصنوعة من الحبال، طاولتَيْن، حصيراً أصفر من الحلفاء مُزخرَفًا بأشكال حمراء. ثمّ بدأت سيلفي تعطي الدّروس. استقرّا يوماً بعد يوم. وصلت صناديق الشّحن ببطء شديد. رتّبا الكُتب والأسطوانات، جهاز التّشغيل والتُّحف. صنعا سهّارة بواسطة الورق النشّاف الأحمر والرّمادي والأخضر. اشتريا ألواحاً بالكاد مُربّعة الشّكل وآجراً ذا اثنَيْ عشر ثقباً وصنعا رفوفاً. ألصقا على الجدران عشرات الصّور وصوراً فوتوغرافيّة للأصدقاء.

كان بيتاً بارداً وكئيباً. كانت الأسقف عالية، مطليّة بنوع من الجير الأصفر الرّملي، والأرضيّة مكسُوّة بمربّعات لا لون لها، كانت المساحات في أغلبها بلا فائدة. كان كلّ شيء هائلاً بلا فائدة، والبيت عارياً جدّاً ويصعب العيش فيه. لو كانوا خمسة أو ستّة بصدد الأكل والشّراب والحديث، لكنّهما كانا وحيدَيْن، ضائعَيْن. غرفة المعيشة بسرير التّخييم

الذي يتوسّطها والحاشية المُغلّفة بغطاء مُرقّط فوقه والرفّ الذي رُمِيَتْ فوقه بعض الوسائد والكتب -سلسلة «پلياد» Pléiade، مجموعة مجلاّت، معزوفات «تيسني»[32] Tisné الأربع- التُّحف، الأسطوانات، خريطة إبحار كبيرة، حفلة الجياد الخشبيّة، كلّ ما مثّل، حتّى عهد قريب، ديكور حياتهما الأخرى.

كلّ ما في عالم الرّمل والحجارة هذا يعيدهما إلى شارع «كاتروفاج» Quatrefage، إلى الشّجرة الدّائمة الخُضرة، إلى الحدائق الصّغيرة. لم تكن غرفة المعيشة خالية تماماً من الحرارة: مُمددين على البطن، بمحاذاة كلّ منهما فنجان قهوة تركيّة، يستمعان إلى معزوفة «كروتزر» Kreutzr، الأرشيدوق L'Archiduc، الصبيّة والموت، وكان كما لو أنّ الموسيقى في تلك الغرفة القليلة الأثاث تصدح بشكل جميل جدّاً. ها هما يسكنان فيها فجأة وها هي فجأة تتحوّل إلى ضيف، صديق عزيز مضى زمنٌ على آخر لقاء معه، صديق يُعثَرُ عليه صدفة، كان فيما مضى يشاركهما الطّعام والحديث عن باريس، وكان، في هذه الأمسية الباردة من نوفمبر، في هذه المدينة الغريبة حيثُ لا يشعران بالرّاحة، يأخذ بأيديهما إلى الماضي ويمنحهما شعوراً كادا ينسيانه، إحساس الحياة المُشتَرَكة كما لو أنّهما في مساحة ضيّقة -مساحة الفراش والرّفوف وجهاز تشغيل الأسطوانات، دائرة الضّوء المُنبَعِثة من السهّارة الأسطوانيّة- استطاعا أن يرسّخا أقدامهما في حيّز محميٍّ لا يقدر الوقت ولا المسافة على اختراقه. لكن حولهما، كان المنفى، المجهول: الممرّ الطّويل الذي يصدح فيه وقع الخطوات، الغرفة الهائلة الباردة والعدوانيّة، التي ما من أثاث فيها غير سرير عريض قاسٍ تفوح منه رائحة القصب، بمصباحها المائل الموضوع فوق صندوق قديم يلعب دور طاولة السّرير؛ سلّة الصّفصاف المليئة بالغسيل، مقعدهما الذي تكوّمت فوقه الملابس؛ الغرفة الثّالثة غيرُ المُستَغَلّة التي لا يدخلانها أبداً. ثمّ سلّم الحجارة، المدخل المُهدّد

32- «تيسني» Tisné (موسيقار فرنسي وُلد سنة 1932 وتُوفّي سنة 1998).

بالرّمل دائماً؛ الشّارع: ثلاث بنايات ذات طابقَيْن، مأوى سيّارات، مساحة مُخصّصة لتجفيف الإسفنج، أرض مترامية الأطراف؛ المدينة.

عاشا في صفاقس الأشهر الثّمانية الأغرب في حياتهما.

كانت صفاقس التي تهدّم ميناؤها وحيّها الأوروبي بسبب الحرب، تنقَسِم إلى ثلاثين شارعاً تتقاطع في زاوية قائمة. أهمّ هذه الشّوارع شارع بورقيبة، الذي يبدأ من المحطّة وصولاً إلى السّوق المركزي حيثُ كان بيتهما قريباً. وشارع «الهادي شاكر» الذي يبدأ من الميناء وصولاً إلى المدينة العتيقة. نقطة التقائهما تُمثّل وسط المدينة: هناك يقع فندق المدينة، حيثُ قاعتان في الطابق الأرضيّ تحتويان على فخّار قديم ونصف دزّينة فسيفساء، تمثال وضريح الهادي شاكر الذي اغتالته اليد الحمراء قُبَيْلَ الاستقلال بقليل، مقهى تونس، المأهول بالعرب ومقهى الـ «ريجنس» Régence، كشك ومكتب تبغ.

الجولة في الحيّ الأوروبي لا تستغرق أكثر من ربع ساعة. كانت الثّانويّة التقنيّة على بعد ثلاث دقائق من البيت، السّوق على مسافة دقيقَتَيْن ويبعد المطعم الذي يتناولان فيه وجباتهما خمساً، مقهى الرّيجنس ستّاً. نفسُ الشّيء بالنّسبة إلى البنك، المكتبة الجهويّة ستّاً من سبع قاعات سينما في المدينة. كان مكتب البريد والمحطّة ومحطّة سيّارات الأجرة التي تُقلّ إلى العاصمة أو «قابس» تبعد عنهما أقلّ من عشر دقائق وكانت تلك هي الحدود التي تُمثّل أقصى ما يحتاجان إليه في مدينة صفاقس.

المدينة العتيقة مُحصّنة، قديمة، بديعة بأسوارها العالية وأبوابها المُثيرة للإعجاب. كانا أحياناً يدخلان المدينة لأجل القيام بنزهة ولكن لأنّهما مجرّد سائحَيْن فإنّهما ظلاّ دائماً غريبيْن.

لم يفهما النّظام البسيط؛ لم يكونا يريان سوى متاهة من الأنهج الضيّقة؛ كانت الشّرفات ذات القضبان الحديديّة تثير إعجابهما، دعامة مُزخرفة، النّوافذ ذات الأقواس القوطيّة، لعبة ظلّ وضوء بارعة، سُلّم ضيّق جدّاً، إلاّ أنّها كانت نزهة بلا هدف؛ كانت مُجرّد دوران، خوف من التّيه. كانا

يتعبان بسرعة. في النّهاية، لا شيء يلفت الانتباه في تلك الدّكاكين البائسة والمحال المتشابهة تقريباً والأسواق الضيّقة وتناوب الطّرقات المزدحمة مع تلك المقفرة والحشود التي لا يبدو أنّها تعرف مقاصدها.

احتدّ الشّعور بالغربة حتّى أصبح ضغطاً لا يُحتَمَل، حين يكون أمامهما فترات مسائيّة طويلة، أو أيّام أحد مريعة، فإنّهما يجوبان المدينة العتيقة من الطّرف إلى الطّرف، وعندما يصلان إلى باب «الجبلي» يمرّان إلى الضّواحي التي لا تنتهي. حدائق صغيرة على امتداد كيلومترات، أسيجة نباتيّة من التّين الشّوكي، منازل مُضاءة، أكواخ صفيح وكرتون؛ ثمّ البحيرة الكبيرة العفنة والخالية، ثمّ حقول الزّيتون حتّى انحصار البصر. كانا يتجوّلان ساعات بأسرها؛ كانا يمرّان أمام ثكنات عسكريّة مُتجاوِزَيْن أراضي قاحلة وأخرى لزجة.

وعندما يدخلان المدينة الأوروبيّة ويعبران أمام سينما «هلال» أو سينما «النور»، عندما يتّخذان مجلساً في مقهى الريجنس فإنّهما يدعوان النّادل ويطلبان الكوكا كولا أو علبة بيرة، يقتنيان آخر «لوموند»، يُصفّران على البائع المُتجوّل الذي يحمل على الدّوام مئزرا أبيض مُتّسخا ويعتمر قبّعة صوفيّة، لاقتناء «الكاكاويّة» واللّوز المقلي، الفستق والبصل، وهما يفعلان كانا يشعران بمرارة بأنّهما في وطنهما.

تمشّيا بمحاذاة النّخل ذي اللّون الرّمادي بسبب الغبار؛ تابعا المسير بجانب واجهات البنايات الموريسكيّة[33] لشارع بورقيبة؛ ألقيا نظرة سطحيّة على الواجهات البشعة: أثاث واهن، مصابيح إنارة على أعمدة حديديّة مُزخرفة بذوق رديء، أغطية، كراريس، فساتين، أحذية نساء، قوارير غاز البوتان: كان هذا عالمهما الوحيد، عالمهما الحقيقيّ الوحيد. عادا يجرّان أقدامهما؛ جهّز جيروم القهوة في ركوة مُستوردة من تشيكوسلوفاكيا؛ فيما انهمكت سيلفي في إصلاح مجموعة اختبارات.

33- الموريسكيّة: نسبة إلى الموريسكيّين وهو نسبة إلى الموريسكيّين وهم المسلمون الذين ظلوا في اسبانيا تحت الحكم المسيحي قبل تشتيتهم في شمال إفريقيا.

حاول جيروم إيجاد عمل؛ تنقّل إلى تونس العاصمة عديد المرّات وبفضل رسائل توجيه حصل عليها في فرنسا ومساعدة أصدقاء تونسيّين أمكنه لقاء موظّفين في الإعلام، في الرّاديو والسّياحة والتّعليم القومي. من دون جدوى: دروس التّدارك لا توجد في تونس ولا المهن بنصف الوقت والوظائف النّادرة كانت مشغولة؛ لم يكن لديه التّأهيل، لم يكن مُهندساً أو مُحاسباً أو رسّاماً صناعيّاً أو طبيباً.

عرضوا عليه التّدريس مرّة أخرى، لم يقبل: سرعان ما فقد الأمل. لم يكن راتب سيلفي ليسمح لهما إلا بحياة مُقتصدة وهو تحديداً نمط الحياة الرّائج في صفاقس. كانت سيلفي تتعب كثيراً كي تجعل طلبة أطول منها قامة ممّن لا يعرفون الكتابة يقفون على الجمال الكامن في نصوص «ماليرب» Malherbe، و«راسين» Racine

كان جيروم يُضيّع وقته. كان يُـوزّع نفسه على مشاريع عديدة -التّحضير لاجتياز امتحان في السّوسيولوجيا، ترتيب أفكاره حول السّينما- لم يحسن التصرّف فيها. كان يتسكّع في الطّرقات، جادة «ويستون» Weston، يصعد إلى الميناء ثمّ يجوب السّوق المركزي.

زار المتحف، تبادل كلمات مع حارس القاعة، تأمّل، لحظات، مزهريّة قديمة، نقشاً جنائزيّاً، لوحة فسيفسائيّة: «دانتيل» في مواجهة الأسود، «أمفيتري» Amphitrite، تركب دلفيناً. ذهب لمشاهدة مقابلة تنس تجري فوق ساحة تحت الحصن، جاب المدينة العتيقة، تجوّل في الأسواق، مُقيّماً جودة الأقمشة والنّحاس والمقاعد الجلديّة. اقتنى الجرائد، لعب الكلمات المتقاطعة، استعار الكُتُب من المكتبة، كَتَب لأصدقائه رسائل حزينة قليلاً، بقي أغلبها من دون ردّ.

وقّع جدوَلُ أوقات سيلفي حياتهما. كانت الأسابيعُ تتكوّن من أيّام حافلة: الإثنين لأنّ الفترة الصباحيّة شاغرة، ولأنّ برنامج السّينما يتغيّر، الأربعاء لأنّ الفترة المسائيّة حُرّة، الجُمعة لأنّ اليوم شاغر بأكمله ولأنّ البرنامج يتبدّل أيضاً، وتتكوّن من أيّام لعينة: البقيّة. كان الأحدُ يوماً

كالعدم، جيّداً في الصّباح فقد كانا يلبثان في الفراش طول الوقت. كانت أسبوعيّات باريس تصل. وكانت فترة ما بعد الظّهيرة طويلة، كئيبة في المساء، إلاّ إذا صادف أن أعجبهما فِيلْم، مع أنّه كان من النّادر أن يُعرَضَ شريطان جيّدان في نصف أسبوع واحد. تلاحقت الأسابيع ب: أربعة أسابيع تُشكّل شهراً، أو ما يعادل الشّهر؛ وكانت الأشهر تتشابه جميعها. بعد أن تقصر الأيّام تعود لتطول من جديد. كان الشّتاء رطباً، بارداً تقريباً.

كانت حياتهما تتسرّب منهما.

الفصل II

كانت وِحدَتُهما كاملة.

كانت صفاقس مدينة مُنغلقة. وخُيِّلَ إليهما أنّ أحداً لن يعرف إليهما طريقاً. الأبواب لا تُفتَحُ أبداً. كانت الحشود في الطّريق تروح وتغدو، سيلٌ بشريّ تحت قوس شارع الهادي شاكر، أمام سينما «هلال»، أمام محلّ حلويات «لي دليس» Les délices؛ أماكن شعبيّة مألوفة. لكن على طول الميناء، على طول الأسوار، بالكاد نبتعد فإنّه العدم، الموت: الباحة الهائلة المُحاصَرَة بكاتدرائيّة قبيحة، محوطة بنخل؛ على جانِبَيْ شارع «بيسڤيل»، أراضٍ مهملة ومنازل ذاتُ طابقَيْن؛ شارع «مانغولت»، شارع «فزّاني»، شارع «عبد القادر زغل» عارية مُقفرة، سوداء ومُستقيمة، بعد أن أُجلِيَ عنها الرّمل. حرّكَ الرّيحُ نخلاً كسيحاً: جذوع مُرشّقة بقشور دميمة، بالكاد تبزُغ منها أذرع كالمراوح، قطط تنبش المزابل، كلبٌ له فرو أصفر يمرّ من حين إلى آخر لصق الجدران جاعلاً ذيله بين قائمتيْه.

ما من روح حيّة: خلف الأبواب المُقفلة دائماً، ممرّات عارية، سلالم حجريّة وساحات عمياء. أنهج تتقاطع في زاوية قائمة، ستائر حديديّة، أسيِجة، عالم من الطّرقات المُزيّفة والسّاحات المُزيّفة والشّوارع القاحلة. كانا يمشيان صامِتَيْن، من دون وجهة، وكان ينطبع لديهما أحياناً أنّ كلّ هذا ليس أكثر من أوهام، أنّ صفاقس لا توجد، لا تتنفّس. كانا يبحثان حولهما عن إشارة تآمر. لا شيء يشير إلى ذلك. كان ينتابهما شعور مؤلم بالعزلة. كانا مُقتَلَعَيْن من العالم، لا يسبحان في نطاقه،

لا ينتميان إليه، كما لو أنّ نظاماً قديماً ساد إلى الأبد، أقصتهُما قاعدةٌ صارمة: سيتركونهما ليذهبا أين يشاءان، لن يُزعجهما أحد، لن يُكلّمهما أحد. سيظلاّن مجهولَيْن غريبَيْن. رمقهما الإيطاليّون والمالطيّون ويونانيّو الميناء بصمت؛ مزارعو الزّيتون الكبار، كانوا يرتدون الأبيض ويحملون نظارات وساعات ذهبيّة، ويتمَشّوْن بخُطُوات وئيدة في شارع الباي، متبوعين بشُوّاشِهم، حتّى إذا مرّوا أمامهما فإنّهم لا يرونَهُما.

لم يكن لهما مع ثانويّة سيلفي التقنيّة سوى صلة بعيدة، وأحياناً مقطوعة. بدا أنّ الأساتذة الفرنسيّين المُرَسّمين لا يعبؤون بالمتعاقدين، حتّى الذين لا يكترثون كثيراً لهذا الفارق شقّ عليهم أن يغفروا لسيلفي كونها ليست مثلهم: ودّا لو كانت زوجة أستاذ: بورجوازيّة صغيرة من الرّيف، النّزاهة والانضباط والثّقافة. يجب تمثيل فرنسا، ورغم أنّ هناك فرنسا الأساتذة المبتدئين الحالمين بالحصول بسرعة على بيت في «أنغوليم» Angoulême، «بازيي» Beziers، «تارب» Tarbes؛ وفرنسا المتهرّبين من الخدمة العسكريّة أو المُعارضين ممّن لا يتقاضَوْن ثلُث الرّاتب مع حقدهم على الآخرين (لكنّها فصيلة في طريقها إلى الانقراض: أغلبهم عُفي عنهم؛ آخرون استقرّوا في الجزائر وغينيا)، ليس بين الفئتيْن من هي على استعداد لقبول الجلوس في الصفّ الأوّل مع السُكّان الأصليّين في قاعات السّينما، أو التنزّه كإنسان خامل، بأحذية ثقيلة، غير حليقين، متلكّئين في الطّرقات. كان بينهم تبادل كتب وأسطوانات، مُحادثات نادرة في مقهى ريجنس، هذا كلّ شيء. ما من دعوة حارّة، ما من صداقة حيّة: لم يكن ذلك ينبت في صفاقس. كان النّاسُ منكفئين على أنفسهم في بيوتهم الكبيرة جدّاً.

مع الآخرين، الموظّفين الفرنسيّين في شركة صفاقس - قفصة أو شركة البترول مع المُسلمين، مع اليهود، مع السّود، كان الأمر أكثر تعقيداً فقد كانت العلاقات مُستحيلة. كان يحدث ألاّ يكلّمهما أحد أسبوعاً كاملاً.

بدا واضحا أنّ الحياة توقّفت بالنّسبة إليهما. مضى الوقت مُتوقّفاً. لا شيء يربطُهما بالعالم، باستثناء الصّحف القديمة التي تصل مُتأخّرة والتي لا يكونان متأكّدَيْن أنّها ليست مجرّد أكاذيب، ذكريات حياة ماضية، انعكاس عالم آخر. كانا يعيشان في صفاقس منذ البداية، وسيستمرّان في العيش في صفاقس إلى الآخر. لم يعد لديهما مشاريع ولم يعد لديهما نفاد الصّبر كذي قبل.

لم يكونا في انتظار شيء، ولا حتّى العُطلة ولا حتّى العودة إلى فرنسا.

لم يكونا يشعران لا بالفرح ولا بالحزن ولا حتّى بالملل؛ لكن يحدث أن يتساءلا إن كانا على قيد الحياة، موجودَيْن حقيقة: لم يكونا يستخلصان من هذا السّؤال المُحبِط غير هذا النّوع من الرّضا: الحياة ملائمة وهي على نحو غير مُتوقّع ضروريّة: كانا في قلب العدم، مُقيمَيْن في اللامكان، الرّمل الأصفر، البحيرات، النّخيل الرّمادي، في عالم لا يفهمانه ولا يهمّهما في أن يفهما شيئاً، لأنّهما، في حياتهما السّابقة لم يخطر لهما قط أنّه سيتحتّم عليهما يوماً التّأقلم، التحوّل، التكيّف مع وضع من الأوضاع، مناخ أو نمط حياة: لم تشبه سيلفي لحظة واحدة الأستاذة التي عليها أن تكون، وبات لدى جيروم إحساسٌ بأنّه نقل منطقته أو بالأحرى حيّه، مُخيّمه، ساحته إلى نعل حذائه الإنجليزي؛ لكن شارع «العربي زروق» حيثُ استأجرا البيت، لم يكن فيه المسجد الذي صنع مجد شارع «كاتروفاج» بباريس ولم يكن في صفاقس مع القليل من الجهد للتذكّر، «ماك ماهون» Mac Mahon، ولا «هاريز بار» ولا «بلزار» ولا «كونتريسكاب» ولا قاعة «پلايال» ولا ضفاف السين في إحدى ليالي جوان، لكن في هذا العدم، بسبب هذا العدم، بسبب غياب كلّ شيء، هذا الفراغ الأساسي، هذه المنطقة المُحايدة، هذه الطّاولة العارية، يُخيَّلُ إليهما أنّهما يتطهّران، أنّهما يجدان البساطة العظيمة، التّواضع في أجمل حلّة. وبالطّبع في ظلّ الفقر العام في تونس فإنّ بؤسهما، ضيق الأفراد المتحضّرين المُعتادين على الحمّام اليوميّ والسيّارات والمشروبات المُبرّدة، لم يكن له أيّ معنى.

ألقت سيلفي الدّروس، سألت تلاميذها، أصلحت الاختبارات، وكان جيروم يرتاد المكتبة الجهويّة، يقرأ الكتب عشوائيّاً: «بورخيس»، «ترويات»، «زيرافا». كانا يأكلان في نفس المطعم الصّغير، على نفس الطّاولة تقريباً: سلطة التن، الدجاج المُحمَّر، الكباب، أو السّمك المُحمّص، الفاكهة. يذبان إلى الريجنس لاحتساء قهوة سريعة يرافقها الماء البارد، يقرآن كمّاً من الصّحف، يُشاهدان الأفلام، ويتسكّعان في الطّرقات.

كانت حياتُهما عبارة عن عادة طويلة، ملل هادئ تقريباً: حياة تفتقر إلى لا شيء.

الفصل III

بدءاً من شهر أفريل راحا يقومان ببعض الرّحلات. أحياناً، عندما كان لديهما ثلاثة أو أربعة أيّام شاغرة ولا ينقصهما المال فإنّهما كانا يستأجران سيّارة ويتّجهان نحو الجنوب. أو أنّ تاكسي جماعياً يُقلّهما يوم السّبت على السّاعة السّادسة إلى «سوسة»[34] أو تونس حتّى يوم الإثنين ظهراً.

كانت، في مُجمَلِها، محاولاتٍ للهرب من صفاقس، من شوارعها الكئيبة، من فراغها، كي يجدا مُتعاً سحريّة وحفاوة في البانوراما، في الآفاق، في الآثار، أشياء تبهر وتدهش، تساعدهما على الثّأر من الخواء. ما بقي من قصور، من معابد، من مسرح، من واحة خضراء مُغطّاة من فوق ربوة، شواطئ من رمل أصفر ناعم يمتدّ نصف دائرة من الأفق إلى الأفق، كانت تُكافئ رحلة بحثهما.

زارا قابس، توزر، نفطة، قفصة، المتلوّي، الآثار البيزنطيّة في مدينة سبيطلة، القصرين، تلابت؛ مرّا بمدن ميّتة بدت لهما أسماؤها مهمّة فيما مضى: محرس، أم العرايس، مطماطة، مدنين؛ إلى غاية الحدود اللّيبيّة.

كانت أرضاً حجريّة رماديّة وغير مألوفة على امتداد كيلومترات. لا شيء ينبت باستثناء نُتَفِ أعشاب صفراء هزيلة، ذات سيقان قاسية. بدا لهما ساعات أنّهما يسيران وسط سحابة من الغبار على طول طريق وحيدة لا يُشاهَدُ فيها سوى أخاديد قديمة أو آثار عجلات نصف ممسوحة. ولا

34- «سوسة» (مدينة في الشّرق التّونسي وتُسمّى بجوهرة السّاحل).

في الأفق سوى أجمات رماديّة، من دون أن يعترضهما شيء عدا بقايا هيكل حمار، دنّاً صدئاً، كومة حجارة كانت بيتاً يوماً ما.

أو على طول طريق مُحدّدة، لكن مُشقّقة وتقريباً خطيرة، كانا يعبران الشّطوط[35] الهائلة وكان على الجانبَيْن على امتداد البصر قشرة بيضاء تسطع تحت أشعّة الشّمس، مُخلّفة في الأفق وميضاً فجّاً يشبه السّراب، أو الأمواج الزّاحفة أو الجدران المُشكّلة.

أوقفا السيّارة ومشيا على الأقدام بعض الخطوات. كان تحت قشرة الملح طبقات من الطّين الجاف المُشقّق الأسمر الفاتح، تُحجب أحياناً تاركة المجال لمناطق داكنة من الوحل الكثيف، حيث السّاق تغوص تقريباً.

جِمالٌ مسلوخة الجلد، مُضطربة، تنتزع، بقطع كبيرة، أوراق الأشجار اليابسة، وأخرى تمدّ شفاهها الغبيّة نحو الطّريق، كلابٌ جرباء نصف برّية تجري في كلّ مكان، جدران متهاوية من أحجار صفراء، ماعز بشعر طويل أسود، خيام قصيرة من أغطية مُرقّعة، تنبئ بأنّنا على مشارف قرية أو مدينة: سلسلة بيوت مُربّعة الشّكل، من دون طوابق علويّة، ذات واجهات رمليّة اللّون، البرج المُربّع لصومعة، قبّة وليّ صالح. تجاوزا بدويّا يتعثّر بجانب حماره، ليتوقّف أمام الفندق الوحيد. كان هناك ثلاثة رجال يجلسون القرفصاء تحت جدار ويغمسون الخبز في الزّيت. أطفالٌ يركضون. امرأة ترتدي عباءة سوداء وبرقعاً يُغطّي وجهها كانت تنزلق من بيت إلى آخر.

كانت الكراسي أمام المقاهي تتجاوز الرّصيف، مضخّم صوت يذيع موسيقى عربيّة: ترانيم صاخبة، تتكرّر مئة مرّة، تُؤدّيها الكورال، ناي عميق النّغمات، قيثارة ودفوف. كان هناك رجالٌ يستظلّون ويحتسون الشّاي ويلعبون الدومينو.

35- الشّطوط: (الشطّ هو أرض ملحيّة شاسعة).

سارا بجانب صهاريج هائلة وعبر طُرُق رديئة وصلا إلى الآثار: أربعة أعمدة تناهز سبعة أمتار، لا تحمل شيئاً، منازل مُهدّمة ظلّ منها فقط مُخطّطها واضحاً، والأرضيّة مُبلّطة في كلّ غرفة مُحطّمة، مدارج، أقبية، أنهج مسقوفة ضيّقة، بقايا مصارف مياه. ومن يزعم أنه الدّليل، كان يعرض عليهما منحوتات من الجبس لأسماك فضّية، قطعاً نقديّة قديمة ممحُوّة، تماثيل صغيرة من الطّين. قبل المغادرة دخلا الأسواق. تاها في الأروقة. معابر وطُرُقٌ مسدودة. حلاق يعمل في الهواء الطّلق بجانب جبل من الجرار. حمار مُحمّل بقُفّتَيْن من الحلفاء المضفورة مليئتين بالفلفل المطحون. في سوق الجواهر والأقمشة، تُجارٌ يرتدون سترات طويلة، يجلسون فوق طبقات من الأغطية وقد فرشوا أمامهم زرابيَّ من صوف وأخرى مُقلّمة الشّعر، عرضوا لهما البرانس الصّوفيّة الحمراء، الحائك الصّوفيّ والحريريّ، مقاعد الجلد المزخرفة بخيوط الفضّة، صحوناً نُحاسيّة، خشباً مُشكّلاً، أسلحة، آلات موسيقيّة، جواهر صغيرة، شالات مُزيّنة بخيوط ذهبيّة، جلوداً مرصّعة بالأرابيسك. لم يشتريا شيئاً، من دون شكّ، في قسم كبير، لأنهما يجهلان كيفيّة شراء هذه الأشياء، كما لا علم لهما بطريقة التّفاوض حولها، لكن خصوصا لأنهما لا يشعران بالرّغبة في ذلك. ما من غرض من تلك الأغراض مهما بلغ جماله لم يكن يشعرهما بالثّراء. كانا يواصلان طريقهما مازحيْنِ أو غيرَ مُكترِثَيْن، لكن كلّ ما رأياه ظلّ غريباً، كان ينتمي إلى عالم آخر لا يعنيهما، ولم يعودا من تلك الرّحلات سوى بصورة فارغة، صور عن القفار والأدغال الموحشة، الصّحراء، البحيرات، ملح حيثُ لا شيء ينبت: عالم وحدتهما والقسوة المُحيطة بهما. مع ذلك فإنّهما عثرا على البيت الذي يحلمان به في تونس، أجمل بيت. كان ذلك في الـ «الحمّامات»[36] عند زوجَيْن إنجليزيّيْن مُسِنّين، كانا يقسمان وقتهما بين تونس وبين فلورنسا بالإضافة

36- «الحمّامات» (مدينة سياحيّة في شمال تونس تُعرَف بطقسها اللّطيف على طول السّنة وهدوئها وبحرها الأزرق الصافي وشطآنها الجميلة وحفاوة أهلها).

إلى أنّ إقامة العلاقات الإنسانيّة واستقبال الضّيوف هما المخرج الوحيد ضدّ السّأم. كان إلى جانب جيروم وسيلفي اثنا عشر ضيفاً آخرون. كان الجوّ تافهاً وأحياناً مُنغّصاً؛ بعض الألعاب، بريدج، دومينو تتناوب مع نقاشات مُترفّعة أو ثرثرة حول مواضيع ليست قديمة جدّاً، قادمة من الغرب ولا تترك المجال سوى لتعاليق حاسمة من نوع (أحبّ الإنسان، وما ينجزه رائع جدّاً...). لكنّ المنزل كان جنّة على الأرض، يتوسّط متنزّهاً يفصله منحدر خفيف عن الشّاطئ برماله الصّفراء النّاعمة، كان عبارة عن بناية قديمة، على الطّراز المحلّي، صغيرة بما يكفي، من دون طوابق، تطوّرت من سنة إلى أخرى، حتّى أصبحت شمس كوكبة من الفيلات المُجاورة من كلّ صنف. كان في المنزل صالة بثماني زوايا، ما من فتحة فيها سوى كُوّتَيْن ضيّقتَيْن، ذات جدران سميكة مُغطّاة بالكُتُب بالكامل، معتمة وباردة كقبر؛ كانت هناك غُرَفٌ صغيرة مطليّة بالجير مثل حُجُرات النُسّاك، خالية من الأثاث إلاّ من كنبتَيْن صحراويّتَيْن، طاولة قصيرة؛ طاولات أخرى، غرف أخرى كانت طويلة وضيّقة، مفروشة بالحُصُر الخشنة وأخرى مؤثّثة على الطّريقة الإنجليزيّة بمقاعد مُنجّدة وموقد عتيق إلى جانِبَيْه أريكتان متقابلتان.

في الحديقة حيثُ أشجارُ اللّيمون والبرتقال واللّوز تمرّ مسالك من المرمر الأبيض محفوفة بأعمدة قصيرة، أثريّة. كان هناك سواقٍ وشلاّلات، كهوف من الحصى، أحواض غطّى سطحها النيلوفر[37] بينها كانت تنزلق أحياناً سمكات فضّية. طواويس تتجوّل مثلما في أحلامهما، ممرّات تغمُرُها الزّهور والأعشاب الخضراء.

لكن بالتّأكيد، كان الوقت قد تأخر. لم تَرُجّ الأيّام الثّلاثة التي أمضياها في «الحمّامات» سباتَهُما. بدا لهما أنّ ذاك التّرف، ذلك اليسر وزخم الأشياء المُتاحة ببداهة لم تكن تعنيهما.

ودّعاهما كما لو كان لقاؤهما ذكرى؛

37- النيلوفر (جنس من النّباتات المائيّة).

لم يكونا قد فقدا حِسَّ اللّياقة لكنّهما لم يفهما الزّوجَيْن؛ مؤكّد أنّه في تونس هذه؛ تونس المنفتحة بموروثها الباذخ، ومناخها الجميل، وحياتها الأسرة المُلوّنة، كانت حياتهما ستمضي أفضل وأسهل. لابدّ أنّها الحياة التي طالما حلُما بها: لكنّهما أصبحا صفاقسيَّيْن، ريفيَّيْن، مَنفِيَّيْن.

عالم بلا ذكريات، أو حتّى ذاكرة. مضى وقت أكثر، أيّام وأسابيع خالية، لا تعني شيئاً. لم تعد تتملّكهما الرّغبات. كان عالماً لا مُبالياً. القطارات تتوقّف، البواخر ترسو في الميناء، تُفرغُ حمولتها من الآلات الثّقيلة، الأدوية، قطع الغيار، لتشحن الفوسفات والزّيت. شاحنات تحمل التّبن تعبرُ المدينة في اتّجاه الجنوب حيثُ المجاعة.

تواصلت حياتُهُما رتيبة: ساعات في الثانويّة، القهوة في الريجنس، أفلام قديمة في المساء، صحف، كلمات متقاطعة. سير أثناء النّوم. لم يكونا يعرفان تحديداً ماذا يريدان. كانا كالمجاذيب.

بدا لهما أنّه فيما مضى -وهذا الـ«فيما مضى» ما انفكّ يبتعد في الزّمن، كما لو أنّ قصّتهما الأولى لم تكن منذ البداية سوى أسطورة، لم تكن واقعاً-، فيما مضى، كانت لديهما لهفة الحصول على الأشياء. ذاك التطلّب كان سرّ وجودهما. أحسّا أنّهما مسحوبان إلى الأمام، بصبر نافد، تنهشهما الشّهوات.

ثمّ ماذا؟ ماذا أنجزا؟ ماذا حدث؟

شيء ما يُشبه التّراجيديا الهادئة، النّاعمة، سكنت قلب حياتهما المتمهّلة. كانا تائهَيْن في مجاهل حلم قديم، في مهملات بلا شكل. لم يبق شيء على الإطلاق. كانا في نهاية الطّريق المُلتبسة التي كان اسمُها حياتهما ستّ سنوات بأسرها، في نهاية رحلة متردّدة لم تفضِ بهما إلى أيّ مكان، ولم يتعلّما منها أيّ شيء.

كان بإمكان كلّ شيء أن يستمرّ على ذلك النّحو. كان مُحتمَلاً أن يمكثا هناك بقيّة حياتهما. كان جيروم سيحصُل على وظيفة، ولن يعوزه المال. كان سيتمّ تعيينهما في العاصمة تونس آجلاً أم عاجلاً. كانا سيتعرّفان على أصدقاء آخرين. كانا سيشتريان سيّارة. ويحصُلان على فيلا رائعة في المرسى، في سيدي بوسعيد أو في المنزه. فيلا كبيرة تحيط بها حديقة.

لكن لن يكون الخلاص من حكايتهما سهلاً. سيتدخّل الوقت في شأنهما مرّة أخرى. ستنتهي السّنة الدّراسيّة وستُصبح الحرارة ناعمة. سيمضي جيروم أيّامه على الشّاطئ وستلتحق به سيلفي حالما تنتهي من الدّروس. ستكون تلك هي آخر المقاطع. أحسّا باقتراب العُطلة. لاحت لهما باريس، الرّبيع على ضفاف السّين، شجرتهما المُزهرة، الـ «شان إليزي»، ساحة «فوج» Vosges، تذكّرا، بحنين، حرّيتهما الغالية، النّوم حتّى ساعة متأخّرة من الصّباح، وجبانهما على انفراد. وعرض عليهما الأصدقاء برنامج عطلة سخيّ: منزلاً كبيراً في «تورين»، طاولة كبيرة ورفقة رائعة:

- ماذا لو عُدنا؟ قال أحدُهما للآخر.

- ربّما عاد كلُّ شيء كالسّابق، قال الآخر.

حزما أمتعتهما. وظّبا الكتب والأسطوانات وصور الأصدقاء الفوتوغرافيّة، تخلّصا من أوراق كثيرة، سلّما البيت، الرّفوف الخشبيّة السيّئة الصّنع، الآجر ذا الاثنَيْ عشر ثقباً. شحنا حقائبهما. عدّا الأيّام والسّاعات والدّقائق.

تنزّها كالمعتاد خلال السّاعة الأخيرة لهما في صفاقس. عبرا السوق المركزي. تمشّيا على طول الميناء، تأمّلا بإعجاب مُتجدّد الإسفنج الضّخم الذي كان يجفّ تحت الشّمس، مرّا أمام المجزرة الإيطاليّة، أمام نزل الزّيتون، أمام المكتبة الجهويّة، ليعودا على أعقابهما عبر شارع بورقيبة، مرّا بالكاتدرائيّة القبيحة، تلكّآ أمام الثّانويّة التقنية حيثُ، للمرّة الأخيرة، ألقيا التحيّة على السيّد «مشري»، القيّم العام، الذي كان يذرع المدخل جيئة وذهاباً، اتّخذا شارع فيكتور هيجو، مرّا بمطعمهما المألوف،

أمام الكنيسة اليونانيّة، ثمّ دخلا المدينة العتيقة عبر باب «القصبة»، فنهج باب «جديد» ثمّ نهج «الباي»، ليخرُجا من باب «الديوان». وصلا إلى قنطرة شارع الهادي، جاورا المسرح، قاعتَيْ السّينما، البنك، احتسيا، قهوة أخيرة في الريجنس، اقتنيا سجائر أخيرة وصحفاً أخيرة.

بعد دقيقتَيْن اتّخذا مكانهما في سيّارة أجرة بيجو 403 على أهبة المغادرة. ستوضَعُ الحقائب على السّطح. كانت الأموال وتذاكر السّفينة في الجيب قرب القلب. انطلقت السيّارة ببطء. عند الخامسة والنّصف مساءً، بداية الصّيف، تكون صفاقس مدينة جميلة حقّاً. ستُشرق تحت أشعّة الشّمس بمبانيها النّظيفة. ستبدو أسوارها الحصينة شامخة. سيؤدّي الكشّافة، بلباسهم الأحمر والأبيض، استعراضهم بخطواتهم المُوَقّعة. أعلام تونسيّة حمراء ذات هلال أبيض وأخرى خضراء وحمراء جزائريّة سترفرف في الرّيح بخفّة.

سيكون هناك جزء من البحر، أزرق صافياً، حظائر بناء ضخمة، ضواحٍ لا تنتهي تعجّ بالحمرة، بالأطفال والدرّاجات، ثمّ حقول الزّيتون اللامتناهية.

بعد ذلك الطّريق: «ساقية الزّيت»، «الجمّ» ومسرحها الرّوماني، «مساكِنْ» مدينة اللّصوص السيّئين، «سوسة» وشاطئها المُزدحم، «النّفيضة» ومعاصرها العملاقة، «بير بو رقبة» ومقاهيها، ثمرها، فخّارها، «قرمبالية»، «بوتانفيل»، بكرومها، «حمام الأنف»، ثمّ قطعة من الطّريق السيّارة، ضواحٍ صناعيّة، معامل صابون، وأسمنت: تونس.

سيسبحان في قرطاج، وسط الآثار، في المرسى؛ سيصلان إلى «أوتيك» و«قليبية» و«نابل»، بعيداً عن العاصمة، حيثُ سيقتنيان الفخّار، في «حلق الوادي» سيأكلان سمك المرجان المشوي.

ثم في الصّباح، عند السّادسة، سيكونان في الميناء. ستكون إجراءات العبور طويلة ومتعبة؛ سيجدان، بصعوبة، مكاناً يضعان فيه كراسيهما على الشّرفة.

لا شيء يعلق في الذّاكرة من الرّحلة في مرسيليا، سيحتسيان قهوة الحليب مع «الكرواسان»، سيقتنيان «لوموند» الخاصّة بيوم أمس و«ليبيراسيون» La Libération.

في القطار، سيُوقّع صوتُ العجلات أناشيد النّصر، أناشيد الصّلاة، أغاني وطنيّة، عدّا الكيلومترات، أبهرهما الرّيف الفرنسي، حقول القمح الشّاسعة، غاباته الخضراء، مراعيه وضيعاته.

وصلا مع تمام الحادية عشرة مساءً. كان الأصدقاء في الانتظار؛ أبهرتهم سحنة الزّوجَيْن الجميلة؛ لونهما الأسمر تماماً مثل كبار الرحّالة، وقبّعة السّعف التّونسيّة. سيرويان عن صفاقس الحكايات، عن الصّحراء، الآثار الرّائعة، المعيشة غير الباهظة، البحر الأزرق. صحبوهما إلى حانة «هاريز». ثملا فوراً. كانا سعيدَيْن حقّاً.

عـادا، إذاً، وستتأزّم الأمـور أكثر. عادا إلى شارع «كاتروفاج» وشجرتهما، والشقّة الصّغيرة الجذّابة ذات السّتائر الحمراء والأخرى ذات السّتائر الخضراء، الكتب القديمة، كومة الجرائد، السّرير الضيّق، المطبخ الصّغير، الفوضى.

كانت رؤية باريس حفلة. تنزّها على طول نهر السّين، في حدائق القصر الملكي، في طرقات «سان جرمان». ستمثّل كلُّ واجهة في كلّ حيّ مُضاء دعوة آسرة. سيمضيان مع الحشود في المحال الكبرى. ستداعب أيديهما أكوام الحرير، والعطور الفاخرة، وسيلامسان بحنان ربطات العنق الأنيقة.

سيُحاولان العيش مثل الماضي. سيتّصلان بالوكالات القديمة. لكنّ سحر العمل لن يكون حاضراً. سيختنقان ثانية، سيعتقدان أنّهما يموتان بسبب الضّآلة والضّيق.

سيحلُمان بالثّروة مُجدّدا. سيمعنان النّظر في المجاري لعلّهما يعثران، صدفة، على حافظة نقود منتفخة، وورقة بنكيّة، قطعة ذات مئة فرنك، تذكرة مترو. سيحلُمان بالهرب إلى الرّيف، سيحلُمان بصفاقس.

لن يُقاوما طويلاً.

حتّى جاء يوم - ألم يعلما أنّ هذا اليوم آتٍ لا محالة؟ - قرّرا إنهاء الأمر إلى الأبد، مثلما فعل الآخرون. ساعدهما الأصدقاء على إيجاد عمل. رافقوهما إلى وكالات عديدة. كتبا سيراً ذاتيّة يحدوهما الأمل. حالفهما الحظّ - ليس الحظّ تماماً - لفتت تجربتهما اهتماماً خاصاً. تمتّ دعوَتُهما. واختارا الكلمات بعناية.

وهكذا بعد سنوات من الصّعلكة، بسبب نقص الأموال، مُتعَبَيْن من العدّ ومؤاخذة الذّات، قبِلَ جيروم وسيلفي شاكِرَيْن العمل لدى وكالة دعاية براتب مُحترَم في وظيفة مسؤوليّة. سيقصدان «بوردو». سيجهّزان لسفرهما كما يلزم. سيُرتّبان بيتهما، سيعيدان طلاءه، سيتخلّصان من أكوام الكتب، رزم الملابس، الغسيل الذي طالما سبّب لهما الحرج. سيتأمّلانه للمرّة الأولى كما تمنّيا دائماً، مُشرقاً، نظيفاً، من دون ذرّة غبار واحدة، من دون بقع، من دون سحالي، من دون مزق، بسقفه الواطئ وساحته القرويّة، شجرته التي انبهرا أمامها منذ اليوم الأوّل.

سيبيعان كتبهما لتاجر كتب، ملابسهما البالية لتاجر ملابس وسيُجهّزان الحقائب.

لن تكون الثّروة بمعنى الكلمة. لن يحظيا بمنصب رئيس مدير عام. لن يُخالِطا غير ملايين الآخرين. سيُترَكُ لهما الفتات لرفاهيّتهما، لقمصان الحرير، لقفّازات الفرو. سيحظيان بمظهر أنيق وسكن جيّد، سيأكلان بشكل جيّد أيضاً، لن يكون هناك ما يأسفان عليه.

ستكون لهما كنبة «شسترفيلد»، أريكة من الجلد الطّبيعي النّاعم مثل كراسي السيّارات الإيطاليّة، الطّاولات العتيقة، المحامل الثلاثيّة الأرجل، الموكيت، السجّاد الحريريّ، مكتبة السّنديان. سينعمان بغرف واسعة وفارغة، مُضاءة، بجدران زجاجيّة، إطلالة ساحرة. سيحظيان بالخزف والفضّة، أغطية الدّانتيل والجلد الأحمر.

لن يكون لديهما ثلاثون سنة من العمر، بل الحياة أمامهما.

سيُغادران باريس بداية شهر سبتمبر. سيكونان بمفردهما تقريباً في قاطرة القسم الأوّل. سينطلق القطار بسرعة. ستتأرجح القاطرة برخاوة.

سيرحلان. سيتركان خلفهما كلَّ شيء. سيهربان. لا شيء سيُفلِحُ في إبطال قرارهما.

«هل تذكرين.» قال جيروم. وسيستحضران الزّمن الماضي، الأيّام المُظلمة، الشّباب، لقاءهما الأوّل، التحرّيات الأولى، شجرة شارع «كاتروفاج»، الأصدقاء الذين اختفوا، الوجبات الأخويّة. لاح لهما كيف كانا يجوبان باريس بحثاً عن السّجائر وكيف كانا يتوقّفان أمام باعة الأغراض العتيقة. سيتذكّران أيّام صفاقس الجميلة، موتهما البطيء، عودتهما المنتَصرة تقريباً.

«والآن ها نحنُ.»، قالت سيلفي. وبدا لهما ذلك طبيعيّاً للغاية.

شعُرا بخفّة ملابسهما. ارتاحا في المقصورة الفارغة. تعاقبت مناظر الرّيف الفرنسي. شاهدا بصمت حقول القمح النّاضج، هياكل أعمدة الكهرباء. سيُشاهدان مطاحن الدّقيق، المصانع المهيبة، مُخيّمات العُطلة، السّدود، بيوتاً معزولة في الخلاء. أطفالاً يعدون في مسلك أبيض.

ستكون الرّحلة رائعة وقتاً طويلاً. عند منتصف النّهار، سيلتحقان بمقصورة المطعم. سيتّخذان مكاناً محاذياً للنّافذة، متقابلَيْن. سيطلبان كأسَيْ ويسكي. سيرمقان بعضهما بعضاً بنظرة ماكرة.

الأغطية الخشنة في المقصورة، الصّحون السّميكة، تنبئ بوليمة فاخرة. لكنّ الطّعام الذي سيُقَدَّمُ لهما سيكون فعلاً من دون طعم.

* الوسيلة هي جزءٌ من الحقيقة، مثل النّتيجة تماماً. يجب أن يكون البحث عن الحقيقة حقيقيّاً في حدّ ذاته؛ البحثُ الحقُّ هو الحقيقة المُستَخدَمَة، حيثُ الأفراد المتناثرون يتّحدون في النّتيجة.